

A L J A W A H E R I

آثار الوثاق

دراسات أدبية في شعر الجواهري

أما التمر في شعوري
فهو من أثر الوثاق

الأستاذ الدكتور
جليل حسن محمد

آثار الوثائق

دراسات أدبية في شعر الجواهري

آثار الوثاق

دراسات أدبية في شعر الجواهري

الأستاذ الدكتور
جليل حسن محمد

الطبعة الأولى

دار دجلة

2010

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه يديل < mktba.net

811.09

محمد ، جليل .

آثار الوثائق: دراسات أدبية في شعر الجواهري / جليل حسن محمد . عمان:
دار دجلة 2010.

(86) ص

ر.أ: (2009/7/2895).

الواصفات: / الشعر العربي // النقد الأدبي // التحليل الأدبي /
أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الطبعة الأولى 2010

دار دجلة

ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص.ب: 712773 عمان 11171 - الأردن

جمهورية العراق

بغداد - شارع السعدون - عمارة فاطمة

تلفاكس: 0096418170792

خلوي: 009647705855603

E-mail: dardjlah@yahoo.com

ISBN : 978-9957-71-124-5

جميع الحقوق محفوظة للناسر. لا يُسمح باعادة اصدار هذا الكتاب. أو أي جزء منه ، أو
تخزينه في نطاق استعادة المعلومات. أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن خطي من الناسر.

All rights Reserved No Part of this book may be reproduced. Stored in a retrieval system. Or
transmitted in any form or by any means without prior written permission of the publisher.

الإهداء
إلى ولدي علي مع
خالص حبي

علاقة مؤلف هذا الكتاب قديمة بشعر الجواهري، وصلته به تكاد تكون يومية، وقد أثمرت هذه العلاقة عن ثلاثة بحوث أكاديمية في شعره وهي (التحدي، الغربية، الحزن) وقد نشرت هذه البحوث في مجلات أكاديمية تصدر في جامعات مختلفة في العراق وفي أوقات متفاوتة، وعندما وقعت هذه البحوث بيد بعض الأصدقاء والمهتمين بالجواهري وشعره أشاروا على المؤلف - بعد الإقرار بفائدتها - بضرورة جمع هذه التفاريق في كتاب واحد يضمها بين دفتيه فيوفر على المتلقي غير قليل من الوقت في البحث عن تلك البحوث لو بقيت في مطارح شتى لاسيما وان المجلات الجامعية بحكم طبيعتها الخاصة تكون محدودة العدد ضيقة الانتشار غائبة عن سوق الكتاب وفي منأى عن متناول اليد، وقد تردد المؤلف أول الأمر عن الاستجابة لرجائهم ووجد أن به حاجة إلى شيء من التريث وإرجاء المشروع إلى قابل الزمن بيد أن الرجاء قد تكرر والدعوة قد نشطت أكثر من ذي قبل ففكر ثم أقدم على ضم هذه البحوث إلى بعضها وجمعها في كتاب واحد غير أن شيئاً آخر قد بقي يشغل باله وهو اصطفاء عنوان دالٍ عليه تنضوي تحته الموضوعات الثلاثة، وقد وقع الاختيار من بين طائفة من العنوانات على تسميته (آثار الوثائق) والذي أوحى إليه بهذا العنوان وهدهداه إليه هو قول الجواهري نفسه:

أَمَّا التَّمَرُّدُ فِي شَعْوِ رِي فَهُوَ مِنْ أَثَرِ الْوَثَاقِ

فالموضوعات الثلاثة المؤلفة لمحتوى الكتاب على الرغم مما يبدو عليها من التباين في الظاهر غير أن هناك قاسماً مشتركاً بينها يكفل لها الجوار المحمود وأعني به المصدر الأساس الذي ينبثق منه ويفتح باب الشعر عليه وهو (الوثائق) المتمثل بأشكال الهيمنة وضروب القهر التي تعرض لها الجواهري إنساناً وشاعراً لشعب راسف في قيود ظالميه من المستبدين والمستعمرين وأعقابهم، فالتحدي أثر من آثار الوثائق ومحاولة جريئة لمواجهته والتحرر من وطأته الدامية، والغربة أثر من آثار الوثائق ومحاولة لل فكاك منه كما أن الحزن أثر ثالث من آثار هذا الوثائق ينبئ عنه بفسيح الكلم ويعلن عن قصور وسائله عن رفع أوزاره عنه أو تهوين سلطانه عليه ويبقى للمؤلف أمل كبير في أن يحوز هذا الكتاب رضا القارئ العزيز وأن يكون جزءاً من الوفاء لهذا الشاعر الذي نذر نفسه لقضايا شعبه والتفت لهموم الإنسان في كل مكان من هذا العالم المتلاطم المغمم بالأرزاء هذا العالم الذي كان حصيد الجواهري منه صنوف المرارة وألوان العذاب وسجلاً حافلاً بالشموخ وضامناً للخلود.

التحدي في شعره

التحدي في شعره

حينما يباري امرؤ آخر في فعل وينازعه الغلبة فيه إنما هو يتحداه ⁽¹⁾ وبهذا المفهوم تبدو قائمة الجواهري طويلة منتصبة في شعره الذي يفيض من خافق يتقاسمه الغضب والرضا، الغضب على ما لا يليق بالإنسان ويخدش كرامته والرضا عن كل ما يشمخ به ويرفع هامته وقد ينبري قائل ويقول: أجل كان الجواهري على الظلم يحتج وعن الحق يزود ولكن ألم يوادع؟ ألم يساير؟ ألم يضعف بدافع من رغبة أو رهبة أمام سلطة أو ملك أو أمير أو وزير؟ أقول: السؤال وجيه والاعتراض وارد و ليس بمقدور أحد أن ينكر الحال أو أن يتستر عليه وأشعاره في ذلك شواخص في ديوانه وعليه شواهد (لكنه كان في صميم الأحداث والمتغيرات دائماً فيعبر عنها في كثير من قصائده حتى عُدَّ شعره سجلاً ممتازاً أو تصويراً دقيقاً لتطلعات الحركة الوطنية في الحقبة المضطربة العنيفة من تاريخ العراق الحديث) ⁽²⁾ هذا ما يقوله عنه الآخرون وإذا ما سئل الجواهري نفسه أ أنت ثائر؟ لبادر إلى القول باعتداد كبير بالنفس (أنا أعتبر نفسي ثائراً بالطبيعة) ⁽³⁾ ويحس المتلقي من هذه الإجابة أن الشاعر يجد لذة كبيرة في الثورة ⁽⁴⁾ وتلح عليه في السؤال وهو يلح عليك في التأكيد ويذهب إلى أن الثورة ميراث ورثه عن الآباء وإن الوفاء لهم يقتضي أن لا يحيد عن دربهم قائلاً:

تِ وضرعها حَفْلُ لبون

أمي غذتني الملهبا

ع ولا يذل ولا يهون ⁽⁵⁾

وأبي تحلف أن يجو

(1) - لسان العرب: 1808/2.

(2) - تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 284.

(3) - مجلة الشعر البيروتية: 38، وينظر المثلث العربي: 133، ولغة الشعر عند الجواهري ضمن كتاب (محمد مهدي الجواهري دراسات نقدية): 201.

(4) - ينظر الغربة حتى وعي الغربة: 76-75.

(5) - ديوانه: 250/7.

إن هذا التحدي الذي يثري به الجواهري ديوانه ويعتز به يأتي على ثلاثة أضرب:

1- تحدي رجال السلطة والحكام:

إن طبيعة الجواهري الثائر وجدت في الأوضاع ما يزيد لها لهيباً وسعاراً، فلقد توالى عليه أحداث جسام تنوعت بين مطاردة تتكرر وسجن يعاود وصحيفة تحتجب ومقتل أخ عليه عزيز، تلك هي معاناة الجواهري وليس هناك عنصر يفوق أهمية عنصر المعاناة في أثناء اللحظة التكوينية للقصيدة⁽¹⁾ وقد تهياً للجواهري أن يودع شعره طاقات إيجابية مكنته من مواجهة السلبيات ومقارعة بواعث التردّي (على اعتبار أن الظروف التي لا تكون في صالح الجماهير يجب أن يقابلها الشعر النقيض لها أي شعر في صالح الجماهير لا الشعر المسابير للسلبيات بنتائجها إذ لا يعقل أن يقع الشعر بضمن النتائج للأفعال السلبية المفروضة قسراً لأنه لم يكن جزءاً منها ولا نتيجة من نتائجها وإنما هو رد فعل ضدها وكل رد فعل للأمور السلبية لا يمكن أن يشابه الفعل السلبي ويسايره على اعتبار أن المسيرة - في هذه الحالة - هي التخدير أو التنويم المغناطيسي وبهذا المفهوم لا يعتبر رد فعل بل هو انقياد بينما الشعر الناتج من جراء المؤثرات السلبية يجب أن يكون رد فعل إيجابي ذا أثر فعال⁽²⁾.

ومن هنا شنّ الجواهري حرباً ضارية على عوامل الفساد مجاهراً برفضه الواقع متطلعاً إلى مستقبل أفضل بديل يكتسح معه مساوئ الحاضر القائم لبناء صرح جديد مشرق وأيقن أن تلك الآمال التي تساوره وتساور شعبه لا ترى النور إلا بتقويض صروح الطغاة والتصدي الحازم للمستعمرين ومآربهم بيد أن الطريق إلى ذلك شاق عسير، وأي مطمح ينقاد لصاحبه بلا ثمن؟

ضعيف على نصره يغضب

فما أن يليق بمجد النضال

بشق النفوس ولا يوهب⁽³⁾

وأن غداً باسماً يُجتلى

(1) - الشعر بين الواقع والإبداع: 106.

(2) - نفسه: 34.

(3) - ديوانه: 169/3.

فالأمانى يسوقها من يستسهل الصعب ويأتي العظام:

ومن يتطلب مصعبات مسالك فأيسر شيءٍ عنده المركب الصعب⁽¹⁾

وليس شيءٍ أولى - قبل البدء - من مجاهدة النفس وترويضها على العزم لتخليصها من
أوشاب الضعف والوهن.

ولي نزعات أبعدتها عن الخنا سجية نفس هذبها الشدائد⁽²⁾

وقبل أن تنوش السيوف مفارق الأعداء لأبد من عزائم تعين على الفعل المقتدر وإلا فلا خير
يرتجى من السيوف في ظل عزائم خائرة.

وما ضرهم نبو السيوف وعندهم عزائم من قبل السيوف قواطع⁽³⁾

والجواهري إذ يرينا عزيمة نفسه إنما يرينا صورة للعزيمة المثلى المبتغاة وهي أصلب من
الصخر وأعتى من الإعصار وأدمر من الخطوب:

ما حطمت جَلدي يد النُوبِ لكن تحطمت النوائب بي

قل للخطوب إليك فابتعدي ألمستِ بي ضعفاً لتقتربي

أنا صخرة ما إن تخوفني هذي الرياح الهوج بالصخب⁽⁴⁾

ومضي السنون وعزيمة الشاعر لا تشيخ ولا تهزم تغريها الأيام بخذلان صاحبها وهي تأبى أن
تهجره أو أن تتوانى عن نصرته وآية ذلك الإصرار الذي لا تلبسه الهوادة للشاعر الشيخ لاسيما في بيته
الأخير من هذا النص:

(1) - ديوانه: 87/1.

(2) - ديوانه: 196/1.

(3) - ديوانه: 102/1.

(4) - ديوانه: 297/2.

أصـلاب أوغاد وهام طغاةٍ

في الكف مطرقتي أفل بـحدها

لـجـج الحـياة عـنـيفة الغـمـرات

سـتـون عـاماً خـضـتها كـمـخـاضـكم

أخـرى و تـفـسـد لـفـها عـزـمـاتي

أجـتـاز مـنـهـا لـجـة و تـلـفـني

فإذا التوى فبماضغي ولهاقي⁽¹⁾

بيدي أشد فإن هوت فبساعدي

والعزيمة الراسية على دعائم متينة لا تلين لسحر المغريات غنما تتحصن من المكاسب الآتية

المثبطة للهم مثلما تتحصن من المحن نفسها:

والمغريات تريدكم أن يدبروا⁽²⁾

أبوا الخنوع فأثروا أن يُقبلوا

وحمل النفس على قبول ما يخشن والسمو بها على الملذات ينأيان بها عن عروض مغرية

محتملة غايتها استمالة العزوم وكسر طوق التحدي لذا يقول الجواهري:

على مطعم خشن أجشِب⁽³⁾

ووطنت نفسي كما تشتهي

ولاشك في أن قهر ملذات النفس يستل منها الخوف ولاسيما وأن الطريق الذي يختاره

المناضلون طريق تحفه المخاطر من كل حذب وصوب وايسر تلك المخاطر عليهم الجوع والعري

فتلك معان (تدفعك إلى الاهتمام والثورة الوجودية الهائلة أمام الذات وأمام العالم معاً)⁽⁴⁾ يصوغها

قلم الشاعر الفنان بقوله:

تخوف أن ترمي به مسلماً وعرا

وليس بحر من إذا رام غاية

إذا كنت تخشى أن تجوع وأن تعري

وما أنت بالمعطي التمرد حقه

(1) - ديوانه: 346/4.

(2) - ديوانه: 31/4.

(3) - ديوانه: 28/2.

(4) - من الغربة حتى وعي الغربة: 88.

وهل غير هذا ترتجي من مواطن

تريد على أوضاعها ثورة كبرى⁽¹⁾

فالخوف والتحدي ضدان لا يجتمعان في صدر ومن هنا ينفي الجواهري عن نفسه الاختفاء عن جماهير شعبه على مدى ستين عاماً لعلمه أن الاختفاء هزيمة وفي الهزيمة دلالة بائنة على الخوف لذا فهو حضور دائم في الموقف الضنك إذا استرفده القوم أرفد:

ستون عاماً لم أحاول ساعة

أن أختفي عمن هنالك أو هنا⁽²⁾

والشاعر يؤمن إيماناً لا ينازعه شك بدور القوة في مظاهرة الحق وتأييد مردييه إذ يميز بين قوتين إحداهما للباطل تنتصر وأخراهما للحق تنزع غير أن الغلبة في نهاية المطاف حليف الحق وإن قصرت وسائله والخيبة المرة قرينة للباطل وإن تظاهر بالعدة والعدد:

فاصمد فحقك قوة مرهوبة

الأقوياء إزاءه ضعفاء⁽³⁾

وما أعظم القوة ساعة تجرف موانع الجائرين وتقتحم بيوت الطغاة وتنقل الصراع إلى عقر دارهم فيطرقون صاغرين أمام كبرياء الحق وثورة أهله:

آليت اقتحم الطغاة مصرحاً

إذ لم أعود أن أكون الرائب

وغرست رجلي في سكير عذابهم

وثبت حيث أرى الدعي الهاربا

ماذا يضر الجوع؟ مجد شامخ

أنني أظل مع الرعية ساغبا

يتبحون بأن موجاً طاغياً

سدوا عليه منافذا ومساربا

كذبوا فملء فم الزمان قصائدي

أبدأ تجوب مشارقا ومغاربا

(1) - ديوانه: 85/2، وينظر: 475/1.

(2) - ديوانه: 307/4.

(3) - ديوانه: 12/4.

تستل من أظفارهم وتحط من أقدارهم، وتثُل مجداً كاذباً

أنا حتفهم ألج البيوت عليهم أغري الوليد بشتهمم والحاجبا

أنا ذا أمامك ماثلاً متجبراً أظأ الطغاة بشسع نعلي عازباً⁽¹⁾

ونظير هذا في انصياع الباطل لجبروت الحق الذي لا يوقف زحفه مكابر قوله:

إن الجهاد صحيفة مخضوبة جمدت عليه للشعوب دماء⁽²⁾

ويلفت الشاعر الأنظار إلى جدوى القوة فيجد فيها أفضل معبر إلى المجد المنشود الذي ينتظر قصاده وراء جبل من لهيب النار ودم الشهيد:

ردي علقم الموت لا تجزعي ولا ترهبي جمرة المصرع

فما سمرت جمرات الكفاح لغير خليك بهـأأروع

فأنشودة المجد ما وقعت على غير أوردة قطع⁽³⁾

وتعد القوة للشعوب المضطهدة بمثابة العتاب القوي للمتجبر الذي لا يعي سوى منطق القوة التي تزلزل كيانه:

وإذا عتبت على القوي فلا يكن إلا بأطراف الحراب عتاب⁽⁴⁾

ويسوغ الشاعر الحقد على مسببي التدهور ومرتكبي الظلم، وقد جاءت صيغتا (الأوجع والأبشع) في النص الآتي لترجحا التكتير والزيادة في ضربهم جزاء وفاقاً لتماديهـم في العسف:

(1) - ديوانه: 402.401/2.

(2) - ديوانه: 11/4.

(3) - ديوانه: 235/4.

(4) - ديوانه: 505/1.

عَمٍ فِي ضَرَاوَتِهِ مُقْدَعٍ

جَزَائِرِ كَيْلِي بَصَاعِي حَقُودٍ

وَمُسْتَبْشَعِ الْحَقْدِ بِالْأُبْشَعِ⁽¹⁾

عَلَى مَوْجِعِ الظُّلَمِ بِالْأَوْجِعِ

إِنَّ الطَّبْعَ الرَّقِيقَ الْمَسْلُومَ مَعَ الْبَغَاةِ الْكَائِدِينَ لَا طَائِلَ مِنْ وِرَائِهِ وَلَا مَنَاصَ مِنْ أَخْذِهِمْ
بِالْقَسْوَةِ وَالْحَدَّةِ وَمُقَابَلَةِ كَيْدِهِمْ بِكَيْدٍ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ:

مِنْ الشِّيمَةِ الْحَسَنَاءِ لِلشِّيمَةِ الْنَكْرَاءِ

تَحَوَّلْتُ مِنْ طَبْعٍ لآخر ضده

فَأَصْبَحْتُ وَحْشاً وَالْغَا فِي دَمٍ غَمْرَا

وَكُنْتُ وَدِيعاً طَيْبِ النَّفْسِ هَادِئاً

رَأَوْا إِنِّي مِنْهُمْ بِتَدْبِيرِهَا أُحْرَى⁽²⁾

فَلَوْ دَبَرَ الْبَاغُونَ لِلْكَيْدِ خُطَّةً

وَيَدْعُو مِنْ مَنْطَلِقِ الرَّدِّ بِالْمِثْلِ إِلَى الْاِقْتِصَاصِ مِنَ الْبَغَاةِ وَالْقَتْلَةِ وَشَرَابِ الدَّمِ وَيُؤَكِّدُ بِاللَّامِينِ
الِدَاخِلَتَيْنِ عَلَى الْفَعْلَيْنِ (تَسْقِي، تَأْخُذُ) وَالنُّونَاتِ التَّوَكِيدِيَّةِ الثَّلَاثِ الْمُلْحَقَةِ بِالْأَفْعَالِ أَنَّ الثَّأْرَ سَيَقْعُ لَا
مَحَالَةَ:

وَالْبَغْيُ أَنْ قَوَى الْأَحْرَارَ تَنْتَصِرُ

مَنْ مَبْلَغُ الشَّرِّ أَنْ الْخَيْرُ يَصْرَعُهُ

وَلَنْ تَمُرَ لَيَالٍ بَعْدَهَا أُخْرَى

يَا شَارِبَ الدَّمِ مَرَّتْ لَيْلَةٌ طَرْفَا

سَمَاءً وَتَكَرَّعَ مَا فِيهَا وَتَنْفَطِرُ

لِتَسْقِينَ بِتِلْكَ الْكَأْسِ مَتْرَعَةً

وَنَسْخَقْنَكَ إِنْ الثَّأْرَ يَنْتَظِرُ⁽³⁾

لِنَأْخُذَنَّكَ أَخْذَ الْلَيْثِ حَصْتَهُ

إِنَّ هَذَا الصَّرَاعَ الْمُرِيرَ الَّذِي يَسْتَرْخِصُ فِيهِ الْأَبَاةُ دِمَاءَهُمْ تَحْدُ عُنِيدُ يَنْتَهِي إِلَى إِحْدَى غَايَتَيْنِ
إِمَّا تَأْمِينَ الْحَيَاةِ الْحُرَّةِ الْكَرِيمَةِ أَوْ نِيلَ الْخُلُودِ بِالشَّهَادَةِ:

⁽¹⁾ - ديوانه: 239/4، وينظر: 267/2.

⁽²⁾ - ديوانه: 87/2.

⁽³⁾ - ديوانه: 335/4، وينظر: 97/2.

تليق بشعب ذي كيان وسؤدد

فإما حياة حرة مستقيمة

فتعذر فاختر أي ثوبيك ترتدي⁽¹⁾

وإما ممات ينتهي الجهد عنده

إن الحياة الحرة التي يناضل الجواهري من أجلها ويحرض الجماهير على صنعها متعذرة الولادة ما لم تروها دماء الضحايا فبين الحياة الحرة والدماء صلة عضوية محكمة وعلاقة جدلية رابطة حتى لتستحيل هذه العلاقة بينهما - عند الشاعر - لازمة توأمية لا تقبل الانفصام:

ودم الضحايا والحياة توأم⁽²⁾

فالشكل والعيش السوي سوية

فالقتال بين المظلوم وظالميه سجال ولا معنى هنا للسلم إذا كان شعاراً موهوماً يقترب في ظله المزيد من المآثم وحين يكون السلم أفتك من الحرب نفسها فالجواب أحمد:

فقد وهت حجج منه وأعداؤ

كفرت بالسلم من بعد الجنوح له

واستكلبت فيه أظباع وأنمار

وقد ربت في ظللال منه مأثمة

في الوعد عي وفي الإيعاد مهذار⁽³⁾

شر من الحرب سلم خادع مذاق

وقد أثبتت التجارب الحياتية المعاشة والوقائع الملموسة أن ملاينة الطغاة تجلب ضرراً مضاعفاً وجوراً أشنع فقد انطوت نفوسهم على الطبع الغليظ والبطر المسرف:

مثل الصغار إذا دلتهم فسدوا⁽⁴⁾

إن الطغاة إذا لاينتهم بطروا

(1) - ديوانه: 14/2.

(2) - ديوانه: 282/3.

(3) - ديوانه: 270/4، وينظر: 330.

(4) - ديوانه: 196/6.

وبوحي من نزعته المتحدية يدعو الشاعر إلى مخاشنة أولئك الطغاة بجأش رابط وجنان
ثابت لا يوافيه خوف ولا تطوف بساحته مصانعة، وآية ذلك استفهامه الإنكاري المكرر وهو
يخاطب نفسه بقوله:

أ أنت تخاف من أحدٍ أ أنت مصانع أحدا؟⁽¹⁾

وشرط في المتحدي أن يصبر حتى تحين ساعة الانقضاء وينتصف المضامون من مصادري
إرادتهم، فلا ضجر على الرغم من جسامه العبء وثقل الوزن:

الصامدون على وعورة دربهم ما مسهم ضجر ولا إعياء⁽²⁾

والصبر لدى الشاعر صبران صبر المستشرف المتطلع الذي يوجب الثناء ويحمل على الإكبار
وصبر العاجز المتقاعس الذي ينقلب صبره سبة عليه ومعة له، فلا كان ولا الصبر:

ذممت اصطبار العاجزين وراقني على الضر صبر الواثب المتطلع

له ثقة بالنفس أن ستقوده لحال يرجى خيرها أو لمصرع

وما الصبر بالأمر اليسير احتماله وإن راح ملصوقاً به كل مدعي

ولا هو بالشيء المشـرف أهله إذا لم تكن عقباه غير التوجع⁽³⁾

يعلن الجواهري مراراً أن طريق الكفاح وعر عسير لكن الصابر المتطلع يجتازه بصلابة عزمه
دون أن يلهج بالشكوى لأن الشكوى ضعف والضعف ينافي التحدي:

حسب الكريم من الأذى إحجامه حتى عن الشكوى من الإيذاء⁽⁴⁾

(1) - ديوانه: 209/6.

(2) - ديوانه: 11/4.

(3) - ديوانه: 277/2.

(4) - ديوانه: 255/4.

ولتلك العلة يحارب الضراعة ويرفض البكاء والبكاين:

سألت نفسي لا أريد جوابها أنا أمقت الضراع والبكاء⁽¹⁾

وتطبيقاً لفكرته تلك يابى أن يكون شاعراً راثياً يبكي الخالدين بدمع هتون، فالخالدون أحياء وما بالأحياء حاجة إلى رثاء أو إلى من يَمْطَرهم بدموع سواكب، قال لمناسبة وفاة عبد الناصر:

أكبرت يومك أن يكون رثاء الخالدون عهدتهم أحياء⁽²⁾

وشاعرنا واجد لذته فيما يجره عليه هذا التحدي من الأذى والنحس:

ولولا قلوب تحسس الأذى لما عرف اللذة العاشقونا⁽³⁾

وتطالعنا صورة من صور التحدي في شعر الجواهري إذ يصر على أن يكون في قلب الأحداث وإن يلزم جماهيره ولا يحلو له أن يحيا في غير بلاده بين أكناف النعمة وحده وبلاده تلفها الأزمات فكأنه يرى في انفراده بالمسرة ضرباً من التهاون في قضايا شعبه وتنصلاً عن منهجه المصطفى لذا تنزع نفسه نحو بلاده ليعانق حر أحداثها ويواصل الشوط على دروب شائكة ووجهته مطلع الشمس:

وما سرنى في البعد حال تحسنتُ بلاديّ أشهى لي وإن ساءت الحالُ

أحب حصاها وهو جمر مؤجع وأهوى ثراها وهو شوك وأدغال⁽⁴⁾

بيد أن الجواهري الذي كان على علاقة حميمة مع مجتمعه سرعان ما صير تلك العلاقة تمرداً عليه في أثر عثرات نفسية حادة بينه وبين مجتمعه الذي رضي بالخنوع وأدعن لمشيئة الحكام العتاة وترك الشاعر وحده في حومة المعاناة، يهيب به فلا يلتفت إليه

(1) - ديوانه: 60/6.

(2) - ديوانه: 51/6، 253.252/3.

(3) - ديوانه: 226/1.

(4) - ديوانه: 265/1.

أحد فإذا به يزيح الستار عن هذه الحال غير المألوفة من تجربته بسيل من الفعل (أطبق) في قوله:

أطبق دجى، أطبق ضباب أطبق جهاماً يا سحاب

أطبق دخان من الضمير — بر محرقاً، أطبق عذاب

أطبق على متبليد ن شكا خمولهم الذباب

لم يعرفوا لون السما لفرط ما انحنت الرقاب

ولفرط ما ديست رؤو سهم كما ديس التراب

أطبق على هذي المسو خ تعاف عيشتها الكلاب⁽¹⁾

2. تحدي الموت:

ومثلما ثار الجواهري على أعداء الجماهير ومناوئ تطلعاتها ثار في وجه الموت انحياراً منه للحياة التي كانت تنبض في جنبات نفسه على نحو عارم على الرغم من أن الموت حدث مرعب لأنه فناء يستهدف الحياة وسر الصراع بينهما في أساسه يعزى إلى وجود جميل مرغوب فيه يخاف عليه وجليل مرهوب منه يخاف وقوعه⁽²⁾ وقد تأكد لديه أن الحياة التي يلفها الخسف ترادف معنى الموت إن لم تكن أشد منه لذة وإيلاماً وأن المرء حين يحرص على الحياة وقيمها الجميلة يهون عليه الموت ويتلاشى أمامه الخوف لأن خيار مجابهة الموت هنا بمثابة الحياة نفسها والاستهانة به إرادة لصنع الحياة نفسها فبذلك يستحيل الموت مضموناً إيجابياً ينافي المضامين السلبية⁽³⁾.

(1) - ديوانه: 407/3.

(2) - روح العصر: 19.

(3) - ينظر الذات والغرائز: 103.

والجواهري في إزاء الموت جلد قوي يقف موقف الند منه يغضب عليه طمعاً في إخافته
ويناجزه طمعاً في الانتصار عليه ينتصب أمامه مرتقباً متى يؤول الصراع بينهما من وجه لوجه إلى
وجه لظهر:

ند مع الموت غضبانا يناجره وجهاً لوجه كجلاد يناصره

يلقي الحديد بأضلاع يفجرها حقد يذيب شبا الفولاذ لاهبه⁽¹⁾

وتحدي الموت بهذه الصرامة يشعر بثقة الشاعر بنفسه ويوحي بتمييزه بالمنازلة التي
تحدوه إليها لذة كبيرة يسهل إشباعها عليه ويعسر على سواه:

وللقيا الحتوف وجهاً لوجه لذة تبتغي بجهد جهيد⁽²⁾

وخلف تلك اللذة نفس حرة لا قرار لها على ضيم ولا تبالي بالموت ذوداً عن الحياة طال
العمر أو قصر، فلا الإقدام يعجل الساعة ولا الإحجام يمد في الآجال، إنما الخلود بالذكر المحمود
الذي يبينه بالجديد ويفرض التغيير المطموح إليه:

هي النفس تأبي أن تذل وتُقهراً ترى الموت من صبر على الضيم أسرا

وتختار محموداً من الذكر خالداً على العيش مذموم المغبة منكراً⁽³⁾

فالموت الذي يهرب منه الآخرون يهرب إليه الجواهري مدفوعاً بحب الحياة حتى أنه
ليتألف مع الموت وتآلفه معه تحدٍ للموت نفسه لأن الموت موت، فأنى السبيل إلى التآلف معه؟!
لكنه الجواهري يركب الصعب ويروضه ليعود من رحلة البحث بالحياة مغنماً:

وأركب الهول في ريعان مأمنة حب الحياة بحب الموت يغريني⁽⁴⁾

(1) - ديوانه: 304.303/5.

(2) - ديوانه: 76/5.

(3) - ديوانه: 271/2.

(4) - ديوانه: 92/5.

والمغرم بالحياة الجميلة يسعى إلى نبعها غير آبه بالصعاب ولنسأل أبا فرات ما نبع تلك الحياة كما ترى؟

أرى الموت نبع الحياة الجميل إذا خضبتة الليالي بدم
وعن وهج الكأس كأس الوجود تترجم عيناى سر العدم
ألذ عناق ظلال الحياة تخالط فيها سرور بهم⁽¹⁾

إن الموت الصانع للحياة هو النمط الذي أراده الجواهري وأدار معه معركته لأنه يعرف أن الموت في الحياة يفضي إلى العدم أما إذا كان استشهاداً في المعركة في سبيل الآخرين فإنه يصبح انتصاراً للحياة بمجموعها انتصاراً له وللجنس البشري⁽²⁾.

3. تحدي الزمن أو الدهر:

يزعم الناس أنه قوة قاهرة مهيمنة لا سلطان لهم عليها، ويعزون إليه كل ما يصيبهم من نفع وضرر وصلاح وفساد⁽³⁾ يراه الجواهري زعماً فاسداً معطلاً لقوى الإنسان وباعثاً على التشاؤم والانكفاء، وهو يحث على الإقدام بغية تفعيل القوى المودعة في الإنسان واستثمارها على أحسن شاكلة، فإذا كان الدهر قوة مكدره للحياة فليكن الإنسان قوة مطاولة لها تناضل من أجل منحها الصفاء والألق:

هو الدهر قارة يصاحبك صفوه فما صاحب الأيام إلا المقارع⁽⁴⁾

فالهمم أن تقارع وأن يكون لك موقع في المقارعة وأن تترث في انتظار ما تسفر عنه الحال من نتائج:

(1) - ديوانه: 390/3.

(2) - المطر والميلاد والموت في شعر السياب: 12.

(3) - ينظر الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام: 33-35.

(4) - ديوانه: 101/1.

وخلها كحبيك النسج تلتحُمُ

دع الطوارق كالأتون تحتدُمُ

دهدى بك الموج أو علت بك القمم⁽¹⁾

وخذ مكانك منها غير مكرث

لكن الدهر يقوى إذا أنس في غريمه تهاوناً وإلا فهو مغلوب على أمره منصاع لإرادة القوي
المسكون بالعزيمة الماضية والمتأهب لدرح بواعث الرهبة ووأد كل مكيدة:

بشتى المخاوف مستصعب

أمامكم موعر ملغم

ويحمي مسالكه أذؤب

يسد مداخله أرقم

تملي على الدهر ما يكتب⁽²⁾

فلا تهنوا إن هذي الأكف

ولابد من اطراح التشاؤم الذي يثقل الخطو ويغري بالركود، فالمحاولة المحاولة أما النتائج
فموكولة بأحيائها وستأتي إن نصرأ أو إخفاقاً ولو تأكدت العواقب لدى العازم على أمر قبل انجلاء
المواقف واتضح الرؤية لخدمت الهمم واضمحت النوازع وتفهمت الغايات:

واترك إلى الغيب ما يجري به القلمُ

خض الكوارث لا نكسأ ولا جزعا

لكان أرخص ما في الأنفس الهمم⁽³⁾

لو كان يضمن نصر قبل موعدة

ويوضح الجواهري وظيفته شاعراً تجاه أحداث الزمان وناسه فينيط بنفسه مهمة تعرية
الشر والأشرار وإماطة اللثام عما يجري في الخفاء، فتلك رسالته وعليه أن يجهر بها وأن يسمع
الآخرين مضمونها وأن يضع في أيديهم مفتاح الباب الذي يطلون منه على الآفاق الجديدة الرحبة،
فهو مجند نفسه لها ومحرض الآخرين على حيازتها:

يجيد نضالا دونها وقراعا

ذخرت لأحداث الزمان يراعا

(1) - ديوانه: 253/5.

(2) - ديوانه: 169/3.

(3) - ديوانه: 253/5.

يزيح عن الشر الكمين قناعاً

وأعدته للطائرات ذخيرةً

رأى كتمها حيفاً بها فأذاعاً⁽¹⁾

وهل أنا إلا كالمؤدي رسالةً

إن ما يدعو إليه الشاعر عمل متواصل لا يقف عند حد ولا يحول دونه تقدم العمر مادام
في النفس رمق وفي القوس منزع:

مثلكم فرقنا في العمر سنٌ

يا شباب الغد إنا فتية

لصروف الدهر ثبت مطمئن⁽²⁾

لم يزل في جانحين خافق

والشاعر لا يحفل بالدهر ولا يسوغ لأحد أن تصدر عنه نامة شكوى لأن الشكوى من نوب
الدهر أمانة ضعف وتخاذل تأبأها عزائم المكافحين على درب الحياة:

على زمن حَوْل قُلُوبٍ

عتبتُ وما لي من معتبٍ

ونختص نحن بما نجتبي

أ نلصق بالدهر ما نجتوي

غير الذي جاء بالطيب

كأن الذي جاء بالمخبثات

مُطلٌّ على شرف يرتبي

وما الدهر إلا أخو حيدة

مثل المسجل في مكتب

يسجل معركة الكائنات

قبضت على حمة العقرب

فما للزمان وكفّي إذنا

ومن قبل مقلبه مقلبي

بناي من قبل ناب الزمان

وسر أنت وحدك في مذهب

دع الدهر يذهب على رسله

(1) - ديوانه: 321/2.

(2) - ديوانه: 327/4.

ولا تحفل بكتاباتــــه

أرد أنت ما تشتهي يكتب⁽¹⁾

وكلما ضايقه الدهر صب عليه جام غضبه وقاومه، ومعلوم أن الغضب (نتيجة لنوع من أنواع الهجوم الحاسم القوي على المصاعب والعراقيل التي تحول دون نيل الأهداف والغايات المرغوب فيها)⁽²⁾ ولكن كيف يغضب الجواهري؟

وكنت متى أغضب على الدهر أرتجل

محركة الأبيات قاذفة جمــــرا

كشأن زياد حين أحــــرج صدره

وُضُوقٌ حتى قال خطبته البترا⁽³⁾

إن تجاوز الماضي والتحرر من عبوديته والنهوض بالحاضر وإملاء أناته جزء من تحديه للزمن إيماناً منه بأن فوات أجزاء من الزمن فوات لفرص من التقدم:

وسوف يبين إذا ما انجلى

غد ، من يجد ، ومن يلعبُ

فسوف يدور (ساعاتكم)

بما لا يسركم (عقرب)⁽⁴⁾

إن مراجعة الماضي وإخضاعه للنقد كفيلاً بتسهيل مسؤوليات الحاضر في التجديد بقصد الانتماء إلى المستقبل بحكمة أعلى وجهد أقل ووقت أقصر:

تذكروا أمس واستوحوا مساوئه

فقد تكون لكمــــم في طيه عبُرُ

مدوا جماجمكم جسراً إلى أمل

تحاولون، وشقوا الدرب واختصروا⁽⁵⁾

(1) - ديوانه: 30.27/2.

(2) - علم النفس في الحياة العملية: 87.

(3) - ديوانه: 86/2.

(4) - ديوانه: 169/3.

(5) - ديوانه: 315/2.

ولا يأتي هذا التجدد إلا بالثورة على القديم البالي والتمرد على مناحي العقم في الأمة:

لَوْ أَنَّ مَقَالِيدَ الْجُمَاهِيرِ فِي يَدِي سَلَكَتُ بِأَوْطَانِي سَبِيلَ التَّمَرُّدِ

إِذْنٌ عَلِمْتُ أَنَّ لِحَايَةَ أُمَمَةٍ تَحَاوُلُ أَنْ تَحْيَا بِغَيْرِ التَّجَدُّدِ⁽¹⁾

تلك هي القوى التي تحدّاهما الجواهري وتمرد عليها ويبدو من خلال النصوص التي قامت عليها هذه الدراسة أن معجم التحدي في هذه النصوص زاخر بطوائف من الألفاظ التي أُجيد انتقاؤها وأحسن استخدامها لعقد الصور المعبرة بدقة عن مفهوم التحدي، فمن الألفاظ التي أدت إلى معاني النفاذ والاندفاع (الاجتياز، الاقتحام، الولوج) أما الألفاظ التي تحمل دلالة المقاومة فمثل (يناجز، ند، وجهاً لوجه).

وحين يعمد إلى كشف مواقف التماسك في فعل التحدي يجد مبتغاه في الألفاظ من مثل (الجلد، الصخر، الأجشب) أما المواضع التي ينبئ فيها عن تضالّ الخصوم أمامه واعتلائه عليهم فيختار لها مفردات تناسب مقتضى الحال على شاكلة (أطأ، أركب، الواثب، متجبر) وإذا أراد أن يطلع متلقيه على الانفعالات التي تعترّي المتحدي فـ (الغضب، والجمر، واللهب، والمحرقه) من مقوماته الأثيرة في البناء، وللموانع، المعترضة سبيل التحدي ألفاظ مخصوصة يلقانا منها (الصعب، موعر، ملغم) ويتوفر على ألفاظ من مثل (مطرقتي، أشد، أقطع، أفل للضرب، وأبوا للتمرد) لحالات الرفض، و(أصمد، غرست، غير مكترث) للثبات وتواصل العزيمة، وفضلاً عن ذلك فإن اسم التفضيل له حضوره في نصوص التحدي وكأن الشاعر بهذا الاستخدام يهدف إلى نفي صفات التحدي عن أخصامه ويقرب نفسه ومن معه من مطلق تلك الصفات على سبيل المبالغة فهناك (الاجوج، الاشع، أخرى، ألد)، ولا يغفل ما تؤديه المؤكّدات من مهام في قطع الشك من فعل التحدي باليقين لاسيما إذا اجتمع أكثر من مؤكّد واحد في القول كاجتماع اللام الواقعة في جواب القسم المحذوف ونون التوكيد الثقيلة على نحو ما يتضح ذلك في (لنسقين، لنأخذن) وسواهما مما يثري هذا الجانب ويعمقه.

(1) - ديوانه: 13/2.

لقد أوتي الجواهري مقدرة عالية منحتة الدقة في الوصف والحسن في التصوير والإجادة في التركيب الشعري وبناء علاقات جدلية بين موضوع التمرد والفن الأسر الذي يفيض جمالاً ويشع توهجاً، وقلماً يحالف التوفيق شاعراً يحاول الجمع بين طرفي هذه المعادلة، بيد أن الجواهري ذا الطبع الموهوب نجح نجاحاً كبيراً في هذا الاتجاه وكأنه كان يحرص على جمع ما تفرق من ملامح بين الرصافي الشاعر المتمرد المبتعد عن روعة الفن وشوقي الشاعر الفنان الذي أحجم عن التمرد وتعامى عن الأوضاع.⁽¹⁾

وما تحقق ذلك للجواهري لولا الذكاء واللسان وقوة الحجة وسطوع البيان ومعايشة الأحداث فرسم للمتحمدي صورة بطولية أشبه ما تكون بالصورة التي رسمها هوميروس لأبطال طروادة العظام.

إن طريق التحدي الذي اختاره الجواهري طريق صعب عسير لا يسلكه إلا الجلد الصبور الذي لا ينصاع لسلطان الرهبة ولا يلتفت لداعية الإغراء، فإيمان الشاعر بحتمية انتصاره الإرادة الحرة حبيب إليه الفقر ووثق أصرته بالشعب وأهداه إلى النضال الدؤوب من أجل غد وضاء لا أثر فيه للقتامة والظلم وهو من أجل ذلك يعلن عن الحاجة الماسة إلى القوة لحماية الإنسان المستلب إذ لا يمكن لهذا الإنسان أن ينال حظه من الحياة والأزهار دونما قوة تحميه وترعاه فقسوة الأعداء يجب أن تقابل بقسوة مماثلة أو أعنف منها لأن المناضل الذي يتلقى ضربات أعداء الشعب ولا يرفع يده متحدياً لا يمكن أن يبلغ الغاية التي إليها يسعى، فالمهم الأول في المتحمدي أن لا يدع ثغرة للبغاة ينفذون من خلالها إلى الساحة لنيل مآرب شريرة، ولا يهم بعد ذلك كيف تكون العقوبة فهي إما أمان تنال أو موت يحول دونها ومن هنا لا يرى الجواهري في السلم شيئاً ذا قيمة بل إنه ليكفر به لأنه يرى فيه ستاراً ترتكب خلفه ألوان المآثم وتنتهك في ظله قداسة الإنسان، وفضلاً عن ذلك فإن الجواهري يخرج من دائرة تحديه لكل المنتشبين بالصبر العاجز والمجهشين بالبكاء العاثر والقانعين بالشكوى التي تذهب مع الريح هباءً فللعذاب عند الجواهري لذة تضاهي لذة الحب لدى العاشقين فهو واحد لذته في هذا العذاب المحبوب الذي يتخذه جسراً يعبر من فوقه إلى ضفاف البهجة أما الموت الذي استهان به الشاعر وتحده فذو صلة بمحور تحديه للجائرين الطغاة فهؤلاء يملكون من وسائل التدمير والتعذيب والبطش ضرورياً وهم لا يتورعون لحظة في

(1) - ينظر تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 330.

استخدامها، ومن هنا يضع الجواهري في حسبانہ أولاً وقبل كل شيء أن الموت في انتظاره في كل آن وهو لا يقدر على فعل التحدي إذا كانت فكرة الموت الرهيب قد استحذت عليه لذا يضع الجواهري نفسه في مواجهة الموت عبر حرب ضروس لا هوادة فيها يقارعه فيها جهداً بجهد غير مبالٍ بالعاقبة فلا قيمة لحياة يجاورها الذل والمسكنة أما الحياة الحرة الكريمة فتغريه بالموت مراراً، كما أن الجواهري في إطار تحديه يتمرد على الدهر ولا يستسلم له وآية ذلك رفضه للقديم البالي وتجاوزه الحاضر الراهن تطلعاً إلى مستقبل آت يليق به وينبئ عن عظم طاقاته التي يجعل بها الزمن طوع إرادة لا معطلاً لقواه.

الغربة في شعره

الغربة في شعره

اضطر الجواهري إلى النزوح عن الوطن فعاش رشحاً طويلاً من الزمن بعيداً عنه وعن الأهل يمارس تجربة الغربة الفاجعة التي أمدته بزخم جديد من معدن الشعر ومادته صاغها فناً رائعاً يخلب به اللب ويأسر النفس، وهذه الذخيرة الشعرية ظلت بعيدة عن مدى النظر والدرس مثلما ظلت جوانب كثيرة أخرى من شعره في منأى عن المتابعة والعناية، وقد رأى الباحث أن الغربة - لكونها فصلاً قسرياً بين الشاعر ووطنه أرضاً وعلاقات - تشكل موضوعاً ذا قيمة علمية خاصة لاسيما حين يُتخذ الشعر وسيلة لإفراغ المحتوى الوجداني المحتدم في النفس، إن الجواهري الذي عُدَّ (جملة استثنائية فريدة ومطولة في سياق الخطاب الشعري المعاصر)⁽¹⁾ أوجعته الغربة فأودع مواجهه تلك في شعر يفيض بالأسى والقلق والذعر والنعمة على نحو يُنبئ بقوة عوامل القمع والإحباط عليه .

والجواهري الذي استحوذت الغربة على شطر كبير من حياته عادت عليه تلك الغربة بشعر وافر وفن رفيع منبثقين من تجربة صادقة، ووجدان متوقد، تلك التجربة التي تجاوزت أبعاد النفس إلى أطراف أخرى متمثلة بالوطن والأهل والصحب وحتى الخصوم وغيرهم، وهؤلاء جميعهم يسهمون في خلق تجربة الفراق والغربة، وهؤلاء هم البنى الأساسية المحركة لشعره والمتحركة فيه.

لغربة الجواهري قصة طويلة يحكيها بنفسه من خلال شعره الذي يمكن درجه في محاور خمسة أساسية هي: موجبات الغربة، والحنين والذكرى، واللوم والشكوى، وحلم العودة، وتلاشي الحلم.

1- موجبات الغربة:

تجد بين الناس من يضطر - تحت طائلة الفقر - إلى أن ينزح عن الوطن، ويولي وجهه نحو ديار الغربة فيضرب في أرضها ساعياً بلهفة وراء حاجته، وباحتاً بحرقه عن مخرج

(1) - جملة استثنائية (مجلة الثقافة الجديدة): 57.

للعيش الذي ينوء بأثقاله، ترى هل وقع الجواهري تحت هذا التأثير فتوسل بالغبرة واستقوى بها؟ أقول: أما الفقر فقد عانى منه الكثير، وكانت له عليه وطأة، بيد أنه لم يتخذ الفقر ذريعة للغبرة، ولم يكن من أولئك الذين يلهثون وراء المال، أو يجدون في طلبه، ولو كان من أولئك لحاز منه الكثير، وممت له فيه ثروة لمجرد أن يسكت، أو يساير، أو يداهن، ثم إنه من بلد يتدفق عطاءً، وهو ابن دجلة التي تنشر الخير العميم، وتفيض بالمنافع الكثار، وها هو يقول بأفصح الكلم:

دمشق: لم يأت بي عيش أصيق به فضرعُ دجلة لو مسحَتْ درارُ⁽¹⁾

بهذا القول يخاطب دمشق حاضرة سوريا ومثله يخاطب بيروت حاضرة لبنان تبرئة لنفس أبية، ودفعاً لسوء مظنة إذ يقول :

أنا - بيروت - إنْ طَلَبْتُ مَحَطًّا عِنْدَ أَهْلِي فَلَسْتُ أَطْلُبُ رِفْدًا

غيرك الثالمونَ مني فرندا فلتكوني غمداً يَضُمُ الفِرْتدا⁽²⁾

إذن لم يكن الفقر بحاديه إلى الغربة، فهل كان نيل الجاه أو الشهرة في المغترب المبتغى الذي إليه يسعى، والضالة التي إليها كان يمضي؟ هذا تساؤل لو حمل إلى شعر الجواهري لجاء الرد عليه بالنفي أيضاً، ولسان حاله يقول :

وما أنا طالبٌ مالاً لأني هنالك تاركٌ مالاً وآلا

ولا جاهاً فعندي منه إرثٌ تليدٌ لا كجَاههم انتحالاً⁽³⁾

ورب امرئ يرى أن الجواهري شاعر، وقول الشاعر لا يقوم حجة له فيما يدعيه من المجد التليد والنسب الأثيل، وهل لدى الجواهري ما يؤيد ادعائه، ويرسي صحة زعمه؟ أجل له ذلك، وآية ذلك أنه (قد تحدر عن أسرة عريقة في العلم والأدب والشعر، اكتسبت شهرتها من باني مجدها العلمي الشيخ محمد حسن صاحب كتاب (جواهر الكلام) وكان لهذه الأسرة

(1) - ديوانه: 274/4.

(2) - ديوانه: 267/5.

(3) - ديوانه: 182/6.

كما لباقي الأسر الكبيرة في النجف مجلس عامر بالأدب والأدباء يرتاده كبار الشخصيات الأدبية والعلمية⁽¹⁾.

لم يكن الجواهري من المغرمين بالمال أو الحريصين عليه ليشد الرحال إلى بلاد الغربه للكسب، ولم يكن مغمور النسب حامل الذكر في أهله ليسأل عن النباهة قي غير أهله، أقول: لا هذا ولا ذاك، وإنما شيء ثالث قد حملة على النأي، وهو بكل بساطة حبه للوطن ومناهضته للذل والرداءة، إنه يغادر البلاد مضطراً مرغماً:

يا دجلة الخير يا نبعاً أفارقهُ على الكراهة بين الحين والحين⁽²⁾

وإلا فإن حبه للوطن راسخ في سويدائه كما يترسخ الدين في فكر المرء ونفسه وهو لهذا يقول:

جدّدي ذكرٍ بلادي إنني بهواها أبدأ الدهر رهين

أنا لي دينان دينٌ جامعٌ وعراقي وگرامي فيه دين⁽³⁾

وهو بسبب هذا التعلق الحميم بالوطن يؤثر أن تنزع منه الكبد قبل مفارقتها إياه :

خذوا كبدي قبل الفراق فإنها معودةٌ أن لا تقرّ على النّزح⁽⁴⁾

إنه مسكون بحب الوطن ولا يمكن لمثله أن يتخلى عن هذا الحب سواء أكان مقيماً في ربوعه أو مشرداً نازحاً عنه، فحبه في الحاليتين سيان، وهو لهذا ساجد للوطن على كل حال، ومؤد طقوس التقديس والولاء:

يا تربةً نهفو إليـه ها كالإله ونسجدُ

ونحبها حتى ونحـ نْ مطارِدٌ و مشرّد⁽⁵⁾

(1) - مقدمة الديوان: 15.

(2) - ديوانه: 83/5.

(3) - ديوانه: 270/1 - 271.

(4) - ديوانه: 209/1.

(5) - ديوانه: 94/6.

فالحب الكبير تسهل من أجله الصعاب، وتصغر إزاء رفعته المتاعب والأهوال، وإن الاستبدال المكاني لا يوهن من سلطان هذا الحب، ولا يخمد جذوته، لأن خارطة الوطن يرسمها القلب بما فيه من الحب، فالوطن يكون حيث ينبض بحبه القلب لا حيث ينتقل الجسد، وعلى هذا محال - عند الجواهري - أن يكون البلد المنزوح إليه بديلاً عن بلده المنزوح عنه:

ولست ببائعٍ أرضي بأرضٍ وإن لم ألقَ فيها ما يسرُّ
ومن لم يرضَ موطنه مقررًا من الدنيا فليس له مقررٌ⁽¹⁾

فلا بلاد تسد مسد بلاده، فهي في القلب والضمير لكن الظلم الذي يسودها، والكبت الذي يخيم عليها يأباهما فكر الشاعر الداعي إلى الحرية والعدل، وما غربته إلا عاقبة من عواقب تلك الأفكار، وما هو إلا ضحية من ضحايا الاستبداد الجائر:

أنا من تلکم الضحايا رمّت بي فكرة حرّة وراء الحدود
لم أطقّ كتمها وأعلم كلّ الـ علم أنني بها أحزّ وريدي⁽²⁾

فالشاعر الحر حين يكبل بأغلال العبودية يضيق بالوطن ذرعاً حتى يستحيل وطنه في مثل هذه الحال سجنًا يزج فيه من لا جريرة له سوى العُلَى والرفعة:

كأنّ بلاد الحرّ سجنٌ لمجرمٍ وما جرّمه إلا العُلَى والترفعُ⁽³⁾

وليس من شيم العزيز الأبّي أن يرضى بالذل أو أن يبيت على الضيم ولو كان الأمر غير ذلك لهان احتماله والصبر عليه، أما المذلة فلا يرضخ لها إلا الخانع الوضع:

يُطاقُ تقلُّبُ الأيامِ فينا وأما أن نذلّ فلا يُطاقُ⁽⁴⁾

(1) - ديوانه: 387/1 .

(2) - ديوانه: 75/5 .

(3) - ديوانه: 112/1 .

(4) - ديوانه: 343/1 .

ولا ينكل العزيز عن رفض الذل ما يقدم له من إغراء ويوفر له من أسباب الترف والدعة وهو لهذا يؤثر الغربة وسوء الحال على البقاء في الوطن مسلوب الإرادة محفوفاً بالذل:

والله لو أوهب الدنيا بآجمعها ما يعث عزي بذل المترف البطر

قالوا يظنون بي شيئاً من الصغر فقلت فيهم وبى شيء من الصغر⁽¹⁾

وهنا يحتدم التنازع في داخله بين أن يستجيب لهوى نفسه التي تلح عليه في البقاء بين أكناف الوطن أو أن يستجيب لداعي الإباء فيغادر الوطن ليعيش بعيداً عنه ملتاع القلب طعين النفس ولكن بقامة شامخة وهامة مرفوعة، فالصراع الناشب في نفسه والمعبر عنه بالتضاد (يجاذب قلبي، ويأبى المقام) يتمخض عنه في النهاية الانتصار للشموخ والانحياز للإباء مع الإبقاء على محبة الوطن وإن كان ذلك في المغترب :

أحب بلادي لو لم أخف بها شر ذي الغدرة الأشرس

يجاذب قلبي إليها الهوى ويأبى المقام بها مغطسي

جفوني ولا ذنب إلا الإباء وإن طاب من بينهم مغربي⁽²⁾

فلا مناص من الغربة في ظل وطن يستحوذ عليه الذل، بيد أنه سيبقى الأمل المرتجى الذي بتحقيقه يلتئم الشمل المشتت والملتقى الحبيب الذي على أديمه يوافي المرء مفارقيه من أهل وخلان:

من لئاء عاف أهلاً وصحاباً وديارا

تخذ الغربة داراً إذ رأى الذل إساراً⁽³⁾

ويتوفر الجواهري على رسم صورة لواقع بلاده هذا الواقع الذي يحمل أبناء البلاد حملاً على الرحيل، والصورة كما تعبر عن نفسها قائمة مؤلمة تبعث على الأسى والحزن، فالصالحون في البلاد غرباء عنها، والسراق فيها ناشطون، والأشرار على تقويض أركانها

(1) - ديوانه: 322/5 .

(2) - ديوانه: 136/1 .

(3) - ديوانه: 195/5 .

منهمكون، فقد غدت هذه البلاد مرتعاً خصباً لأولي الرجس والدناءة، وعذاباً جاحماً لذوي الطهر والفضل، طائفة كبيرة من الصور أو صورة كبيرة تكثر فيها التفاصيل عبر إيراد الشيء وما يقاطعه أو بالأحرى عبر صدم الفاضل الغائب الذي يطلب بالمرذول السائد الذي يشجب، فالبلاد للسراق والصالحون فيها محرومون، وهي جنة للرجس وعذاب للزاي، وخيارهم بها خطأ والأردلون صواب، ويستوطنها البغاث (رمز الهوان والضعف)، ولا مكان فيها للنسور (رمز الشموخ والسمو) والجواهري لا تطاوعه نفسه على التكيف مع هذا الواقع المتري، أو الاندماج فيه فيؤول به الأمر إلى تسفيهه والتمرد عليه، فينفر منه بالغبرة:

ولكنني آسٍ لنهـبٍ مقسّمٍ	وليس به للصالحين نصابٌ
وبيتٍ لسراقٍ تلوذُ بـركنهِ	سباقٌ على تهديمهِ وغلابٌ
مجافية أحكامه فهو جنّة	لرجسٍ وللزاي لظىً وعذابٌ
ومعكوسة حتى كأنّ خياره	به خطأ .. والأردلون صوابٌ
أطاحتْ بأعشاشِ النسور بغائهُ	وحلّ به خيرَ الوكورِ غرابٌ ⁽¹⁾

ولكن أيعذر الجواهري على هذا الإيثار إيثار الغربة على البقاء في أرض الوطن، ألا يعاب على ذلك؟ يرى الجواهري أن لا عيب في ذلك ما دام المرء يأبى مجاورة الإسفاف، ونفسه تربأ عن معاشرة المسفين:

يا غريبَ الدارِ يا مَنْ	صَرَبَ البيدَ قمارا
ليسَ عاراً أنْ تُؤلّي	مِنْ مُسِفِّينَ فراراً ⁽²⁾

بيد أن الفرار قد وقع في أعقاب مواجهات جريئة، وتحديات صعبة لهؤلاء المسفين الأراذل، فهو لم يغازل هؤلاء ولم يذعن لهم حتى في أوان ضعفه وقلة نصرائه:

يا سبوحاً عانقَ المو	جّة مدّاً وانحساراً
لم يُغازلْ ساحلاً من	ها ولا خاف الفراراً ⁽¹⁾

(1) - ديوانه: 183/4 .

(2) - ديوانه: 201/5 .

إن هذه النصوص برمتها تؤكد أن برم الشاعر بسوء الأوضاع والعوامل الضاغطة قد ألجأه إلى
النأي عن الديار والأهل والصحب ولكن على مضض منه .

2 - الحنين والذكرى :

الوطن معنى قبل أن يكون شكلاً ترابياً مرسوماً بحدود ومقيداً بأبعاد، ويأتيه هذا المعنى
من العاطفة الإنسانية الجياشة التي يحملها المرء تجاهه عبر تأريخ طويل من الذكريات والمواقف
والعلاقات والأحداث تترسخ في الوجدان وتتوحد معه ولهذا بين لفظتي الوطن والحنين تقارب شديد
وارتباط وثيق فقد نص اللغويون على أن حنين الإبل يعني نزوعها إلى أوطانها وأولادها وكذلك
الإنسان⁽²⁾ .

إن أي فعل قسري يحمل الإنسان على النزوح عن الوطن هو فعل يراد به تهشيم الرابط
الوجداني المندغم بواقعه المكاني المتمثل بأرض الوطن وفي ذلك من الإيذاء النفسي ما لا يطاق، ومن
هنا قرن القرآن الكريم الخروج أو الإخراج من الديار بالقتل وعده نظيراً مساوياً للموت مصوراً
عاطفة حب الوطن على أحسن ما يكون التصوير في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾⁽³⁾ . فالجواهري الذي ذاق مرارة الغربة
يثور في نفسه حنين طاغٍ إلى بلده الذي فارق فيه أهلاً كراماً وصحباً أxiاراً عذبت بوجودهم أمواه
دجلة والفرات ولولاهم لكان النهران - عنده - في جملة الأنهار الأخرى التي تشق مجاريها في
الأرضين:

لي في العراق عصابة لولاهم ما كان محبوباً إليّ عراق

لا دجلة لولاهم وهي التي عذبت تروق ولا الفرات يُذاق⁽⁴⁾

ويحظى عهد الشبيبة بالنصيب الأوفر من محفزات الحنين إلى الوطن، لأنه العهد الأبهى
الذي دلف ولم يعد بالإمكان استرجاعه، أو تكرار إيقاعه العذب :

بلاد بها استعذبت ماء شيبتي هوئى ولبست العزّ برداً على برد

(1) - ديوانه: 196/5 .

(2) - ينظر جمهرة اللغة: 64/1، وتهذيب اللغة: 443/3، والحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي: 12 .

(3) - سورة النساء، الآية: 66 .

(4) - ديوانه: 360/1 .

وصلتُ بها عمرَ الشبابِ وشَرَحَهُ بذكرٍ على قُربٍ وشوقٍ على بعدٍ

بذلتُ لها حقَّ الودادِ رعايَةً و ما حفظ الودَّ المقيمَ سوى الودَّ⁽¹⁾

والجواهري يحن إلى الوطن على كل حال غير أبيه بما لقي فيه من عنت ونكد، فهو همه المحمول في خافقه وبشوقه إليه يمحو من نفسه كل مشاعر الجفاء نحوه ويتحرر من عواطفه السلبية إزاءه وإن غبن فيه:

ما إن تزلَّ على ما دُقَّتْ من غُصَصٍ لديك من صلب حاجاتي ومن وَطْري

حملتُ همَّكَ فـي جنبيَّ أَصْهَرُهُ في لـاعـجٍ بوقيد الشوق منصَّهَرٍ⁽²⁾

ويبقى البعد المكاني في حيال العاطفة المتوثبة قصير المدى إذ تتسع مساحة الوطن - بالوجدان - أكثر من رقعته المكانية (الجغرافية) حتى يستحيل خارج الوطن وطناً بالعاطفة والوجدان:

لا تَحْسَبُوا أَنَّ بَعْدَ الدارِ يُذْهِلُنِي عنكم ولا قِصَرَ الأَيَّامِ يُنْسِينِي⁽³⁾

وإذا كان البعد عاجزاً عن إيقاف دفع الحنين فيه إلى الوطن فإن يسر الحال في البعد غير قادر على إلهائه عن الحنين إليه، والشاعر يعرب عن هذا الحنين اللاهب من خلال صورة أرساها على التضاد أو التقابل بين المسافات وتباين الأحوال (البعد والقرب (بلادي)) و(ما سرَّني، وأشهى إليّ) و(حال تحسنت، وساءت الحال) فالشاعر هنا يدع ما يراود ويُشْتَهَى (المسرة وحسن الحال) ويقبل على ما يُعَاف ويُجْتَنَب (الترح وسوء الحال) وهو في قبوله هذا ورفضه ذاك مدفوع بالحب الذي يزين له صورة الوطن ويجعله دوماً الأجمل والأحسن والأعلى وعلى وفق ذلك لا يجد جمالاً في المسرة بعيداً عن الوطن لأن تلك المسرة مقصورة عليه وتمثل حالة فردية، والجمال - عنده - إنما يكون بشمل مجموع على أديم الوطن المنزوح عنه :

وما سرَّني في البُعدِ حالٌ تحسَّنتُ بلاديَّ أشهى لي وإن ساءتِ الحالُ

(1) - ديوانه: 197/1 .

(2) - ديوانه: 319/5 .

(3) - ديوانه: 232/1 .

فَمِنْ شَاقَّةِ بَرْدِ النِّعَمِ بِفَارِسٍ فَأُنْصِي إِلَى حَرِّ الْعِرَاقِينَ مِيَالُ

أَحْنُ إِلَى أَرْضِ الْعِرَاقِ وَيَعْتَلِي فَوَادِي خَفُوقٌ مِثْلَمَا تَخْفِقُ الْأَلُ⁽¹⁾

وللحنين عند الجواهري مظاهر تبدو في سلوكه ومزاجه ترى بعضاً منها في شوقه المتوقد إلى الوطن أرضاً وأبناءً، بيد أنه لا يرى جدوى من هذا الشوق لأنه لا يقوده إلى ضالته ولا ينيله مناه في العودة، ولكن مقدر عليه أن يشاق:

سَهْرْتُ وَطَالَ شَوْقِي لِلْعِرَاقِ وَهَلْ يَدْنُو بَعِيدٌ بِاشْتِيَاقٍ

وَهَلْ يُدْنِيكَ أَنْكَ غَيْرُ سَالٍ هَوَاكَ وَأَنْ جَفَنكَ غَيْرُ رَاقٍ⁽²⁾

وشوق الشاعر موج في داخله ولا إرادة له على كبه، ووسائله تقصر دون إخماد جذوته، فلا تعينه على إطفاء الشوق خمر يهرب إليها، ولا لحن يلوذ به :

يَا سَامَرَ الْحَيِّ بِي شَوْقٍ يَرْمِضُنِي إِلَى اللَّدَاتِ إِلَى النِّجْمِ—وَى إِلَى السَّمَرِ

يَا سَامَرَ الْحَيِّ بِي دَاءٌ مِنَ الضَّجْرِ عَاصَاهُ حَتَّى رَنِينَ الْكَأْسِ وَالْوَتْرِ⁽³⁾

ويبدو السهر المؤرق مظهراً من مظاهر شوقه الغامر الذي يفضي به في نهاية المطاف إلى الحزن المفرط الذي يمنع عن عينيه التغميض، ويستل من نفسه الطمأنينة، وقد أبان الشاعر عن هذا الواقع النفسي المأزوم في صورة محسوسة إذ شبه نفسه بالضجيج على النار الذي لا يقر له قرار، ويتقلب على ناره أماً في مخرج يريحه من عذابها، لكنها النار على كل حال وما التقلب إلا الإقبال على مزيد من الألم، أو على ألم جديد :

وَبْتُ بَلِيلٍ لِفَرْطِ الْأَسَى كَلِيلِ الضَّجِيعِ عَلَى نَارِهِ

وِظَلٌّ يَحْنُ فَوَادٍ الْمَشُوقِ لِذِكْرِ الْحَبِيبِ وَأَخْبَارِهِ⁽⁴⁾

وبضغط من هذا الحنين أو الشوق الموصول الذي لا يبرحه ليل نهار، ولا تنبثق عنه بارقة أمل تؤذن بالعودة أو بقرب العودة إلى الوطن، يجد في البكاء وتسكاب الدموع البؤرة

(1) - ديوانه: 266-265/1 .

(2) - ديوانه: 271/5 .

(3) - ديوانه: 314/5 .

(4) - ديوانه: 178/1، وينظر: 271/5 .

الأثيرة التي يستريح عندها هنيهة ليجمع بها شتات قلب مبعثر الأوصال ليستأنف بعدها
رحلة الحنين والشوق ثانية:

أحبائي بين الرافدين تيقنوا بأني وإن أبعدت عنكم لَسَأَلْ
لئن راقكم ماء الفرات وظللت عليكم من الصفصاف والنخل أظلالُ
فإني من دمعٍ عليكم أذيله شروبٌ و—من سوداءِ قلبي أَكَالُ
لقد كان هذا القلبُ في القربِ مُضْغَةً وها هو من بعد الأحبّةِ أوصالُ⁽¹⁾

فالشاعر قد عظم حنينه، وطال انتظاره ولكن أبواب الوطن ظلت موصدة في وجهه، ولم يبقَ
في كنانة الشاعر سوى ممكن واحد يخف إليه ويتوسل به وهو أن يبعث عبر الأسوار بسلامه الذي
قُدَّ من لهب وصيغ من شعل:

سلاماً كُلُّهُ قُبِّلَ كأنَّ صميمَهَا شُعَلَ
وشوقاً من غريبِ الدا رِ أعيتْ دونه السُّبُلُ
مقيمٌ حيثُ يضطربُ الـ مُمْنِي والسَّعْيِي وَالْفَشْلُ⁽²⁾

والجواهري المبتلى بالغربة في حاضره يغادر هذا الحاضر ليعيش في الماضي السعيد ويهنأ به
(فالماضي منطقة مريحة يستعين بها الخائب للتعويض عن حاضره المسحوق وإحباطاته المتكررة
حيث يجد فيه نوعاً من الهناء والراحة النفسية)⁽³⁾ ومن أجل ذلك يهش - في الغالب - للذكريات
التي يحمل ذهنه منها خزيناً ثرياً يستحضر منه ما يمكن استحضاره بتلذذ جم وحب كبير فهو
يتذكر الأمكنة التي شهدت ملاعب صباه على الفرات وفي الكوفة وغيرهما ويعد ذكرياته فيها من
أبهج ما نال وسجل:

ويا ملاعبَ أترابي بمُنْعَطِفٍ من الفُراتِ إلى كوفانَ فالجُرِّ
فالجِسْرُ عن جانبَيْهِ خَفَقَ أشرعُ رُفَافَةٍ في أعالي الجوّ كالطُّرِّ

(1) - ديوانه: 266/1 .

(2) - ديوانه: 238/5 .

(3) - المرثاة الغزلية في الشعر العربي: 9، وينظر الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام: 249.

يا أهنأ السَّاعِ في دنيائي أجمعِها إذا عددتُ الهنيءَ الحُلُوَ من عُمْري⁽¹⁾

وتعود به الذاكرة إلى بيته على دجلة في جانب الكرخ الذي أمضى فيه زمناً حميداً حلا فيه المقام واجتمع فيه الشمل وتتابع فيه إنتاج القصيد:

ويا مَقِيلاً على غربيها أبدأ ذكراه تعطف من عودي وتلويني

عش الأهازيج من سجلي يُردِّدها سَجُّعُ الحمام وترجيُّ الطواحين⁽²⁾

إن ذلك الفرح الذي أقامته العائلة باجتماع أفرادها في الماضي عاد اليوم ذكرى ولم يعد ممكناً في المنفى أو الشتات، وليس للشاعر إلا أن يجترها مستعذباً إياها ولكن مُشرباً بغير قليل من الحزن:

خليلي أشجى ما يُنْعَصُ لذتي منأح أقامته عيالاً وأطفالاً⁽³⁾

ودجلة التي تغنى بها الجواهري عن قرب وعن بعد بأعذب الألحان، وأرشق الكلم حيل بينه وبينها في إثر صحبة طويلة، وهو لهذا تهيج ذكرياته كلما ذكرت دجلة، وهو إذ يتذكرها إنما يتذكر العراق برمته، وذكريات الجواهري في عراقه كثيرة ليس من السهل على القلب احتمال هياجها إذا ما لمعت تلك الذكريات على صفحة الذاكرة:

نأث دجلة عني وبانت ضفافها وأبعدَ ذاك الروضُ ذو المنبتِ الأحوى

فوالله ما أقوى على ما تهيجُهُ لقلبي من الذكرى ويا ليتني أقوى⁽⁴⁾

وتبدو حاجة الشاعر ماسة - في مغتربه - إلى هذه الذكريات، فالحاضر في نظره (لا يمثل إلا اتضاعاً مربعاً ممجوجاً لا تنكشف جوهريته إلا عبر صدمة بالماضي المشرق)⁽⁵⁾.

وأية ذلك أنه يقسمها طائفتين (جامحة) تستعصي على الذاكرة فتثير في الشاعر الشكوى المرة لأنها تمنع ولا تعين على البلوى فيميل عنها إلى طائفة أخرى (سمحة بر)

(1) - ديوانه: 316/5 - 317 .

(2) - ديوانه: 104.103/5، غريبها: غرب دجلة .

(3) - ديوانه: 265/1 .

(4) - ديوانه: 284/1 .

(5) - مقالات في الشعر الجاهلي: 120 .

مطوعة تستجيب لدواعي الذاكرة فتزيل الشكوى، وتهوّن الاضطراب، وتلبّي حاجة النفس
اللائذة بظلال الماضي المحمودة أخباره، فهو يقول :

ويا صدى ذكرياتٍ يَسْتَرِّزُ دمي بهزّةِ جمّةِ الألوانِ تعروني
أشكو المرارةَ من إعناتِ جامحةٍ منها إلى سمحةٍ برّ فتشكيني
مثل الضرائرِ هذي لا تُطاوعني فأستريحُ إلى هذي فتؤويني⁽¹⁾

والذكريات التي أودعها الشاعر في ثنايا الماضي مع صحبه في الوطن ما زالت مؤثرة تأثيراً
إيجابياً في أولئك الصحب والأقران المنتشرين خارجه، فهي تجمع شتاتهم، وتقوي الآصرة بينهم على
الرغم من النأي عن الوطن والتشرد في المطارح:

يَا أُمَّ سَعْدٍ إِنْ تَنَاءَتْ دَارُنَا فالذكرياتُ بيننا تُقَرِّبُ⁽²⁾

إن (الشاعر يسترجع الذكريات ويعيش أحداثها، ويقحم على الحاضر أجواءً من الماضي
الذهاب... لكنه لا يود أن يطويها في ذلك الماضي، لأنها معين لا ينضب من مضامين وموضوعات
وإحياءات)⁽³⁾، وبهذا يتجلى واضحاً أن الحنين إلى الوطن واسترجاع ذكريات الماضي السعيد كانا
شاغلين مهمين من شواغل الجواهري الغريب.

3 - اللوم والشكوى :

كان وقع الغربة على الشاعر ممضاً وأشدّ مضاضة منه حين رأى أن الوطن بما فيه من صحب
ورفاق ومتقفين آثروا الصمت المطبق تجاهه أوان محنته فأنحى عليهم باللائمة المرة، ولم لا يلوم؟
أمثله يُنسى ويُعرض عنه وقد طار صيته في الآفاق، وتباهت به المحافل؟

أُيُنْكَرُ إِلْفَتِي حَتَّى صَحَابِي وَتَنْبُو الْأَرْضُ بِي حَتَّى بِلَادِي
وَمِنْ عَجَبٍ تَضِيعُنِي وَذَكْرِي تُرَدِّدُهُ الْمَحَافِلُ وَالنَّوَادِي

(1) - ديوانه: 102/5 .

(2) - ديوانه: 250/5. وأم سعد هي الدكتورة سعاد خضر زوج الدكتور صلاح خالص .

(3) - الشعر والزمن: 76 .

أيدري من يُردِّدُها حِساناً خلاءً من زحافٍ أو سِنادٍ

بأن الشعرَ تشربُ من عُيُوني قوافيه وتأكُل من فؤادي⁽¹⁾

لام الشاعر أحبابه وهم أولى باللوم لأن المحبة الحقة توجب عليهم التواصل مع بعض، لكنهم أغفلوا أمره، وشغلوا عنه حتى أنهم لا يكلفون أنفسهم عناء كتابة الرسائل إليه، ويؤكد الشاعر إمعانهم في إغفاله باستعمال لفظة (مختصر) فقد عزَّ عليهم أن يمنحوه من وقتهم حتى ما ضؤل منه أو قصر:

يا أحبابي وما أصبرُكم أحسنُ الأحبابِ من لم يصيرِ

طال إسهابي وما أشوقني لكتابٍ منكم مُختصرِ

كم أرى منتظراً وعدكم ثَقُلَ الوعدُ على المنتظرِ⁽²⁾

كان الشاعر في مغتربه ببراغ مكرماً موفور العزة لكنه ظل مفعماً بإحساسات الكدر والنأي، وكان يؤلمه أن يرى الأندال والأشرار في بلده مقدمين مكرمين وذوي المواهب الخلاقة تتقاذف بهم رياح التشرد وبسبب هذا الميزان المختل يرسل اللوم إلى بلاده والأقربين ولا بد أن يأتي شديداً إذ يقول:

أنا في عِزَّةٍ هنا غيرَ أنِّي في فؤادي ينزُّ جرحُ الشريدِ

لي عتابٌ على بلادي شديدٌ وعلى الأقربينَ جدُّ شديدِ

أفصقُ طريدةً لغرابٍ ونبيغُ ضحيةً لبليدٍ⁽³⁾

ويحملُ القومَ مسؤوليةً تاريخيةً كبيرةً إزاء هذا الجحود الذي يلقاه منهم وسيبقى هذا الجحود متواتر الذكر جيلاً في إثر جيل مروحياً من تأريخ يحكي قصة طريد أي طريد:

يا لبغدادَ حينَ ينتصفُ التأ ريحُ من كلِّ ناكِرٍ و جحودِ

يا لها إذ يُقالُ كان على العقد لم لديها ما لم يكنْ لولودِ

(1) - ديوانه: 402/1 .

(2) - ديوانه: 354/1 .

(3) - ديوانه: 76/5 .

جَحَدَتْهُ فَعَاشَ أَيُّ ضَنِيكِ وَرَمَتْهُ فَعَاشَ أَيُّ طَرِيدٍ⁽¹⁾

ويوجه اللوم عنيماً إلى اتحاد الأدباء العراقيين لكونهم الشريحة التي يفترض فيها أن تعي دورها في المسؤولية، فلا يجب أن تسكت على ضيم حرٍّ وترضى ببحرود نبوغ عرفوه عن كتب، لكن الذي حصل أنهم أساءوا إليه إما إساءة حينما انفضوا من حوله في الظرف العصيب الذي يطلب فيه الأنصار ويرتجى لمواهبته الأعوان، وقد نعت الشاعر صمت هؤلاء الأدباء بصمت القبور بقصد إخراجهم من عداد الأحياء إلى عالم الأموات الميؤس منه والمخيب لآمله:

وَاسْتَطَابُوا صَمْتَ الْقُبُورِ وَهَانَ الثُّ
كُلُّ فِيهِمْ بِالصَّادِحِ الْغَرِيدِ
وَكَأَنَّ لَمْ يَرْفَعْ مَنْ أَرَارَ الْقَصِيدِ
وَكَأَنَّ لَمْ يَكُنْ مَحَجَّ الْوُفُودِ
مَلَأُوا الْأَرْضَ حِينَ عَادَى ذَوِي الْحُكِّ
حَمَّ وَذَابُوا مِنْ حَوْلِهِ حِينَ عَوْدِي⁽²⁾

وعلى هذه الشاكلة يواظب أعداء الشاعر على الإسراف في خصومته والشماتة به والتندر بآلامه ورفاقه سكوت سكوت لا تصدر عنهم نامة رفض أو زفرة احتجاج، ولهذا جعلهم موضع لومه قائلاً:

أَغْمَزَا فِي قَنَايَ مِنْ عُدَاةٍ
تَنَاهَشُنِي وَصَمَّتَا مِنْ رِفَاقِي
وَلَهُوًّا فِي التَّنْدُرِ مِنْ جِرَاحِي
تَلَهَّى الطِّفْلُ بِالْكَسْرِ الدَّقَاقِ⁽³⁾

ورداً على الموقف السلبي للرفاق المتخاذلين ينقل الشاعر رحي اللوم إلى ساحته فيلوم نفسه التي أركبها كل صعب، وشق بها كلَّ وعر، ولم يجن من ذلك كله سوى الحنظل المر واللوم المقيت، ويتمنى لو لم يفعل ما فعل، ولم يقدم على ما أقدم عليه من أجل رهط مات فيهم الإحساس، وأمحل عندهم الوجدان فأذعنوا للقيح ورضوا بالمذمة:

مَاذَا صَنَعْتُ بِنَفْسِي قَدْ أَحَقَّتْ بِهَا
مَا لَمْ يُحِقُّهُ بـ(روما) عَسْفُ نِيْرُونِ
أَلْزَمْتُهَا الْجَدَّ حَيْثُ النَّاسُ هَازِلَةٌ
وَالْهَزْلُ فِي مَوْقِفٍ بِالْجَدِّ مَقْرُونِ

(1) - ديوانه: 76/5 - 77 .

(2) - ديوانه: 77/5 .

(3) - ديوانه: 273/5 .

وَسُمَّتْهَا الْخَسْفَ أَعْدَى مَا تَكُونُ لَهُ وَأَمْنَعُ الْخَسْفَ حَتَّى مِنْ يُعَادِينِي

وَرَحْتُ أَظْمِي وَأَسْقِي مِنْ دَمِي زُمْرًا رَاحَتْ تُسْقِي أَخَا لُؤْمٍ وَتُظْمِينِي⁽¹⁾

لكن الشاعر يعود إلى هدوئه بعد هذا السيل المتضافر من لوم الآخرين في بلاده فيلتمس لهؤلاء الملوّمين الأعذار وكأنه يحس في داخله أن لا جريرة لهم إنما هم في واقع أمرهم ضحايا لعوامل القهر التي كان الشاعر أحد ضحاياها وهم لهذا في حيرة من أمرهم، وحيرتهم ماثلة لحيرة الشاعر نفسه وما دام الأمر كذلك فلا يبقى اللوم ما يسوغه:

يَا غَرِيبَ الدَّارِ فِي قَا فَلَ سَارَتْ وَ سَارَا

لِمَصِيرٍ وَاحِدٍ ثَمَّ تَنَاسَتْ أَيْنَ صَارَا

سَامِحِ الْقَوْمَ انْتِصَافًا وَاخْتَلَقْ مِنْكَ اعْتِذَارَا

عَلَيْهِمْ مِثْلَكَ فِي مَفِّ تَرَقِّ الدَّرْبِ حَيَارَى⁽²⁾

وحين رأى الجواهري أن الشوق قد طفح وأن الحنين قد بلغ الزبى واللوم قد تناثر هباءً أخذ يجأر بالشكوى المرة والحسرة الحرة من غربة طويلة الأمد، ثقيلة الوقع، بطيئة الخطى، وما الشكوى إلا (عاطفة أساسها الشعور بالحرمان ولعلها من أول الفنون التي تفصح عن عاطفة الإنسان المتشائمة الناقمة، وتعكس أوجاع النفس في أشجانها وقنوطها وآلامها نتيجة التناقض أو الإحباط أو الضعف الذي يواجهه الإنسان إزاء قوة لا يقدر عليها)⁽³⁾ وقد قيل إن (الشكوى تخفف الهم وتزيل الألم)⁽⁴⁾ فالجواهري يخاطب أحبابه في العراق شاكياً إليهم مرارة غربته القاسية قائلاً:

أَحْبَابُنَا بَيْنَ مَحَانِي الْعِرَاقِ كَلَفْتُمْ قَلْبِي مَا لَا يُطَاقُ

الْعَيْشُ مَرٌّ طَعْمُهُ بَعْدَكُمْ وَكَيْفَ لَا وَابْعُدْ مَرُّ الْمَذَاقِ⁽⁵⁾

(1) - ديوانه: 99/5 .

(2) - ديوانه: 203/5 .

(3) - الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري: 4 .

(4) - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: مج 1 ج 438/2 .

(5) - ديوانه: 255/1 .

ويلغي الجواهري الفروق بين الغربة والسجن ففي كليهما يتعرض المرء لسلب الإرادة
وغياب الحرية:

يا بَنَ وَدِّي وما بعيدُ رهينُ الـ سـ جُنِ عن رهْنِ غُربةٍ مستمَنٌ
غيرَ أَنَّ الظروفَ يُبدِينَ فرقاً رَبُّ قبحٍ يعودُ مرآةَ حُسنٍ⁽¹⁾

كما يشكو من وحشة الغربة وأطيافها المرعبة التي تداهمه، وتضغط عليه في النوم حتى أنه
ليود أن يبقى يقظان من غير نوم خشية أن تعاوده تلك الأطياف فتدخل على نفسه الرعب:

يا دجلةَ الخيرِ يا مَنْ ظَلَّ طائِفُها مِنْ كُلِّ ما جَلَّتِ الأحلامُ يُلَهيها
لو تعلمينَ بأطيافي ووحشتِها وَدَدْتُ مثلي لَو أَنَّ النومَ يجفوني⁽²⁾

وتفرض عليه أوضاع الغربة أن يعيش وحيداً لا أنيس له سوى هوٍ يحمله بين جنبيه
لبلاده، ويد ترجم عن نفسه المكلومة بالأشعار، وكأس يداوي بها همومه الثقيل:

نحنُ السبايا (أربعُ) في غربةٍ أنا والهوى ويدي وكأسُ شرابي⁽³⁾

والشاعر في جحيم هذه الوحدة يحس - شأنه في ذلك شأن الآخرين - أن الوقت يتثاقل عليه
وأن الزمن يحيد عن سننه في الجري فتستحيل الأيام أشهراً والأشهر أعواماً:

مَنْ ذا يُصدِّقُ أَنَّ يومي عندها شَهْرٌ وشهريَ قيدُهُنَّ بعامٍ⁽⁴⁾

لقد طال صبر الشاعر ولو كان في طول الاضطراب مخرج لأزمته لهان الأمر وزان التريث بيد
أن الزمن يمضي والسوء يطغى والحقوق تهدر:

مَنْ لَهْمٌ لا يُجارى ولآهاتٍ حيارى
ولمطوياً على الجم - سراراً وجهاراً

(1) - ديوانه: 234/5 .

(2) - ديوانه: 91/5، وينظر: 671/5 .

(3) - ديوانه: 157/6 .

(4) - ديوانه: 281/5 .

رِ الَّذِي يَطْلُبُ ثَاراً

طالِباً ثَاراً لَدَى الدَّهْرِ

.....

.....

لَمْ دَمِ الْعَبْدِ جُبَاراً⁽¹⁾

مَنْ لَسْتَيْنِ انطوَتْ مِنْهُ

ويتعمق فيه الأسى فيبث شكواه من هذه القسمة غير العادلة التي قضت أن تشاع البلاد لعقيم وسقيم، ويشرد منها موهوب ومضحٍ إرضاءً لحقد وانقياداً لمظنة، وكأنه يقول: (لَمْ أَنَا الجواهري أحرَم الأشياء؟ لَمْ لَا يَتَهَيَّأ لي منها ما يتهَيَّأ لغيري! تقول: إنك شاعر نضال. وأقول: أحرام على شاعر النضال أن يعطى مناه؟ أن يعطى حقه في الحياة؟ أن ينال ثمرة النضال كما نال الآخرون من ناضل منهم ومن لم يناضل، فإن كان نعيم فأين حظي فيه؟ وإن كان نضال فأين أرضيته؟)⁽²⁾ وهو تحت تأثير هذا الحزن يقول:

أَشْهَادَةٌ مَشْرَدُونَ بِلَا وَكْدٍ مِنْ وَخْرُسِ الطُّيُورِ تَأْوِي لَوْكُنِ

أَفْنَحْنُ الْمَزْعُوزُونَ عَنِ التُّرْبِ بِهٍ تُسْقَى دِمَاءُنَا كُلَّ قَرْنٍ

بِضَحَايَا تَطِيحُ فِي كُلِّ دَرْبٍ وَقُبُورٍ تَصِيحُ فِي كُلِّ رُكْنٍ

أَفْنَحْنُ الْمُطْعَنُونَ عَنِ الرُّبِّ عِ وَنَحْنُ الْحَمَامَةُ فِيهِ لَطْعَنٍ

أَفْنَحْنُ الَّذِينَ يَرْتَفِعُ السَّوْ طُ عَلَيْهِمْ بِظَنَّةٍ الْمَتْنَنِي؟⁽³⁾

كان الشاعر ينحاز إلى الخير وإليه يسعى، ويحث على التضحية وبها يغرم، بيد أن ذلك عاد بسوء العواقب عليه وتجييش المطاعن نحوه، أليس في هذه المفارقة العجيبة مبعث للحزن أو مدعاة للشكوى؟

تَزْرَعُ الْخَيْرَ رَاحَتَايَ وَأَجْنِي الْشَّوْكَ وَالْوَخْزَ وَالْحَزَازَاتِ حَصداً

وَشُرُوراً نَثَرْتُ عَفْواً هَبَاءً وَجَنَى الزَّهْرِ نَاثِرُ الشَّوْكِ قَصداً⁽⁴⁾

(1) - ديوانه: 195/5 .

(2) - وراء الأفق الأدبي: 192 .

(3) - ديوانه: 233/5 .

(4) - ديوانه: 266/5 .

لكن هذه الشكوى تخف صورتها عنده حينما ينتبه إلى أن ما يعانيه من ألم وعناء إن هو إلا لازمة وطنية تجاه بلده الحبيب، وإن الألم العظيم مرهون بالرجل العظيم الذي لا يبالي بدم يُطل أو شموخ يطعن، أو غربة عليها يكره، واسوته في ذلك أبو الطيب المتنبي الذي أريق دمه وأبو تمام الطائي الذي مات وهو غريب الدار:

أبا الفرسان إن عَفْتُ ديارَ عقدتُ بها شبابي بالمشيب
وذُوبْتُ الضلوعَ على ثراها ولمْ أطلُبْ بها أجرَ المذيبِ
فلا عَجَبٌ فقبلي ضِفْنٌ ذرعاً بخير الناسِ أحمدَ والحبيبِ
فذيَّاكَ استبيحَ دماً وعِرضاً وذاك قضي بها نحبَ الغريبِ

... ..

أبا الفُرسانِ لا عَجَبٌ فإنَّا نُؤدِّي فِدْيَةَ البلدِ الحبيبِ⁽¹⁾

فقد (تشبعت ذاكرة الشاعر بالرجال الذين وقفوا أبطالاً في عصر دفع فيه الجواهري دفعاً إلى اليأس والحلم، فقد كان هؤلاء جميعاً... شواطئه التي أُن من ضياعه الطويل وباباً مضيئاً فتح على ليل غربته، ومتنفساً رائعاً، وحلماً يملؤه بحس الحرية، ويحميه من جحيم الطقوس)⁽²⁾، إذن لا وصول إلى الغايات العليا مع الضجر والبرم ولا بد من احتمال المشاق وامتناء الصعاب لأن:

دِيَّةُ الثائرِ أن يَحْ تَمِلَ النقعَ المُثارا⁽³⁾

4 - حلم العودة :

إن الغريب المكروه على الغربة يظل على صلة وجدانية قوية بوطنه، ولا يفارقه حلم العودة إليه، إذ يتوقع تلك العودة في كل لحظة، وحلمه هذا (يمثل تسوية في الصراع بين

(1) - ديوانه: 260/5 .

(2) - من الغربة حتى وعي الغربة: 115 .

(3) - ديوانه: 198/5 .

الرغبة والواقع⁽¹⁾ والجواهري كان يظن أن غربته ستنتهي وإن طالت، ولهذا كان يمني النفس بشمل مجتمتع مع الأهل والصحب على ثرى الوطن قائلاً :

ألا هل تعودُ الدارَ بعدَ تَشَتَّتِ ويُجمَعُ هذا الشملُ بعدَ تفرُّقِ
وهل ننتشي ريحَ العراقِ وهل لنا سبيلٌ إلى ماءِ الفراتِ المصْفَقِ⁽²⁾

وليس تحقيق هذا الحلم بمستحيل، لأن الدنيا تحتل الشيء وضده، وهي ليست محضة لحال دون حال، إنما هي في تقلب وتغيير وقد تعيد إصلاح ما أفسدت:

وأحلامنا منها صحيحٌ و كاذبٌ وأيامنا منهُنَّ مُعْطٍ ومَانِعٍ
كما فرَّقَ الشملَ المَجْمَعُ حادثٌ فقد يجمعُ الشملَ المَفْرَقُ جامعٌ⁽³⁾

لكن الحلم معقود بالمستقبل والمستقبل غيب، ولا علم لأحد بكنهه، ومن هنا تكون خشية الشاعر مسوغة بجوار ذلك الحلم أو معه:

في أمسِ كالْيَوْمِ حوانا منزلٌ منكِ لنا أهلٌ به ومرحِبُ
راقٍ به منكِ الصفاءُ و الندى والسَّمَرُ الحُلُوُّ الشَّهْيُ الطَّيِّبُ
فهل تريَنهُ غداً يجمعنا أم نحنُ مِنْ دُونِ تلاقٍ نذهبُ⁽⁴⁾

يتمنى الشاعر العودة إلى الوطن ولا يهमे بعد ذلك كيف تكون الحال إن عاد، فسواء عنده الحياة أكانت في عيش رغيد أو في ضيق شديد:

أَتَضْمِنُ مَقِيلاً لي سوا سِيَّةٍ بَيْنَ الحشائشِ أو بَيْنَ الرِّياحِ⁽⁵⁾
فالوطن على ضيق خير من سواه على سعة:

أنى ثوى ذو طِمَاحٍ فهو مُعْتَرِبٌ في دارةِ الشمسِ أو في هالةِ القَمَرِ⁽¹⁾

(1) - علم النفس والأدب: 233 .

(2) - ديوانه: 257/1 .

(3) - ديوانه: 105/1 .

(4) - ديوانه: 250/5 .

(5) - ديوانه: 84/5 .

وما دام بلوغ الحلم غير مقرون بأجل مسمى، والانتظار قد يمتد ويطول فإن الصبر يصبح لازمة مهمة يُهَوَّنُ بها الخطب، ويوطد الخطو، ويقرب الأمل:

يا غريب الدارِ لا تأ س وإن ضقتَ اصطباراً
خُلِقْتُ عيناكَ كي تُعَدَّ ترفاً النومَ غِراماً⁽²⁾

وليكن للشاعر في صبر الآخرين أسوة له حتى يأتي اليوم الذي تزول فيه الغمة :

فإن كُتِبَ الفراقُ لنا فصبراً على كلِّ الوري كُتِبَ الفراقُ⁽³⁾

فشدة البلوى لم تقدر على إطفاء إشراقة النفس فيه، أو أن تنزع تفاؤل الروح منه، فقلبه ما يزال ينبض بالأمل الزاهي، ووجدانه يتطلع إلى غدٍ مبهج، وقد أوحى بهذه المعاني قوله: (جنانهُ خضل) من بيته الثاني في قوله الآتي:

وحيثُ يُعارِكُ البلوى فتلويهِ ويغتدِلُ
وحيثُ أديمُهُ يَبَسُّ وحيثُ جِناهُ خَضِلُ⁽⁴⁾

وهو بوازع من هذا التفاؤل لم يتخذ ديار الغربة إلا محطات إقامة مؤقتة، وما هو إلا ضيف فيها والضيف لا بد إلى أهله عائد :

رُحْتُ ضيفاً لأُمّةٍ لَمْ تَلِدْنِي كنتُ فيها الأعرَّ أهلاً وولداً⁽⁵⁾

فيا ترى هل تصدق تلك الرؤية، أو يتحقق ذلك الحلم أم يتبدد في غربة أبدية لا عودة منها لحام؟.

5 - تلاشي الحلم:

إن الشمل المجمع الذي كان يحلم به الشاعر، ويصبر على المكابدة من أجله كان حلماً جميلاً لكنه بدأ يتضاءل ويخبو رويداً رويداً، فالزمن يجري بلا توقف، والغاية تمتنع من غير هواده، والنفس تسأم وقع الاجترار، والعمر يدلف إلى المنتهى، والموت يتربص من قرب:

(1) - ديوانه: 315/5 .

(2) - ديوانه: 197/5 .

(3) - ديوانه: 343/1 .

(4) - ديوانه: 238/5 .

(5) - ديوانه: 266/5 .

وطول مسيرة مَلْ

لقد أُسرى بيّ الأجل

نِ غايٍ مطمَعٌ خَجَلُ

وطول مسيرة من دو

غَدُ طولُ السُرى وَجَلُ⁽¹⁾

على أني - لأن يُنهي

والياس الذي يرافق الكبر يعطل في المرء قواه، ويحيله إلى كيان فاطر لا يرجى منه ما كان يرجى منه في عهد الفتاء والقوة، إذ لا رجاء مع اليأس، ولا أمل من غير سنيد قوي:

وكنْتُ و كُلهُ أملُ

أشاعَ اليأسَ بي عُمُرُ

بها ما شقَّ يحتملُ

وعُمُرُ المرءِ فضلُ مني

ولا حَوْلُ ولا قِبَلُ⁽²⁾

فإن ولتُ فلا ثَقَّةُ

وما قيمة الأحلام ما دامت الوسائل إلى تحقيقها معدومة، والسبل إلى بلوغها متعذرة:

مُ ما كُجِلْتُ به المُقَلُّ

ألا هل ترجِعُ الأحلا

يَّ ليلُ مُطِيقُ أزلُ⁽³⁾

وهل ينجابُ عن عيْنِ

وبعد أشواط طويلة من الصراع مع النفس ومع الآخر ترسخت في ذهن الشاعر قناعة مؤدّاها إن الأقدار لا تُصارع، والعواصف الهائجة لا تواجه، وليس له إلا التسليم بواقع الأمر حين لا يتكافأ طرفا الصراع شأنه في ذلك شأن النصور الكاسرة التي لا تقوى على تحدي العواصف فتخضع لها وتهبط إلى أعشاشها مضطرة مرغمة:

أم شايكُ أنت مُغْتَرّاً يَدَ القَدَرِ

أناشدُ أنتَ حَتْفاً صَنَعَ مُنتَحِرِ

طوى لها النسرُ كَشْحِيهِ فلم يَطِرْ⁽⁴⁾

خَفَضُ جناحَيْكَ لا تهزأُ بعاصِفَةٍ

(1) - ديوانه: 237/5 .

(2) - ديوانه: 237/5 .

(3) - ديوانه: 237/5 .

(4) - ديوانه: 311/5 .

إذن لا جدوى من حياة يحيها المرء مقموع الإرادة مستلب القوة، يملئ عليه القدر ما يشاء فيطيع، فالموت - إزاء ذلك - إليه أحمد، وهو لهذا يتمناه راضياً ويطلبه صادقاً لأن الأيام لم تجب له سؤله فهو يقول :

أنا إذا أطلُّبُ الحِمَامَ بِنَفْسِي لم أُنْهَها وعِزْمَةٍ لم تَحْنِي
لا لشيءٍ إلا لأنَّ المنايا في مَصِّ الرِّجَالِ أَعْرَضَنْ عَنِّي⁽¹⁾

إنه يجد الموت على مرارته حلوّاً إزاء عذاب الحياة، فيجعل ذلك الموت مطلباً عزيزاً والحياة كريهة إذ يقول:

إليك زماني خُذْ حياةً سِئِمْتُهَا هي السِّمُّ قي ذوب الحُشاشة ينقُعُ⁽²⁾

فما أقرّف الزمن الذي يُكره فيه الجواهري على تمّني الموت بعد أن كان موتاً يلج البيوت على الطغاة ويطأ رؤوسهم فيها بشسع نعليه، مضى الجواهري لكنه سيظل بيننا ويبقى هو والوطن الذي أحبه وحلم بالعودة إليه صنوين لا يفترقان في ضمير كلّ حي.

كانت الغربة عن الوطن فاجعة كبيرة أشعرت الجواهري بكثير من المرارة وكدر الحياة، لكنّها مكّنته في الوقت عينه من خلق خرائد جديدة من الأشعار تواشجت مع جياده السابقة لتصنع صفحة ناصعة من الخطاب الشعري الرفيع، وقد أسفر النظر في نصوص الغربة عند الشاعر عن جملة حقائق يمكن إجمالها على النحو الآتي:

1 - إن الدافع الأساس لغربة الجواهري هو فراره من واقع سيء كان يضيق به ويتبرم، وقد حمله هذا الواقع حملاً على النأي عن الوطن ومفارقة الأهل والصحب .

2 - ظل الجواهري رغم الإساءة إليه شديد الصلة دائم الارتباط بوطنه، فقد ظلت عاطفته معقودة لهذا الوطن، وحافلة بحبه إذ كان يتغنى به عن بعد، ويحن إليه غاية الحنين، ويتذكر أيامه السعيدة التي قضاها في ربوعه .

3 - كان الشاعر - من خلال نصوصه - كثير الاستياء من الموقف المتخاذل والصامت الذي لاذ به الكثيرون في بلده تجاه محنته في المغرب، فأنحى عليهم باللائمة المرة

(1) - ديوانه: 234/5 .

(2) - ديوانه: 112/1 .

- لا سيما الأوساط المثقفة التي كان يجب عليها أن تبادر إلى قول الحق، والانحياز إلى الحقيقة فوجه إليها اللوم مثلما وجه إلى الأصدقاء وغيرهم، ولم يستثن من اللوم حتى نفسه.
- 4 - وإن كانت الشكوى المرة التي كان يبثها في غربته حصيلة آلامه وأوجاعه إلا أنها كانت في الوقت نفسه وسيلة من وسائله في تهوين الخطب وتخفيف تلك الآلام المعذبة .
- 5 - ليس بين نصوص الشاعر شيء يصرح أو يوحي بمرمه بأهل البلاد التي حل بها غريباً، إنما كان حسن الرأي فيهم، ويثني عليهم على ما قابلوه به من حفاوة وتكريم، لكن الشاعر لم يتخذ حسن المقام ذريعة لطلب البديل عن الوطن فقد بقي الوطن هو الأشهى إليه .
- 6 - كان حلم العودة يراوده بقوة في سنيه الأولى، لكن هذا الحلم بدأ يتضاءل ويخفت كلما مرت السنون، وتتابعَت الأيام، حتى أيقن أن العمر قد مضى، وأن الكِبَر قد علاه، وأن اليأس قد استفحل، فلم يعد بالإمكان تحقيق الحلم، لقد شارفت الحياة على النهاية، وبات الموت قريباً، فمات دون أن تكتحل عيناه برؤية الوطن الحلم .

الحزن في شعره

الحزن في شعره

صحيح إن الحزن عاطفة تشي بضعف الإنسان تجاه الآخر أو الآخرين في صراع غير متكافئ بيد أن هذه العاطفة تعد من اللوازم الطبيعية للإنسان بل إن الحياة نفسها شركة بين الفرح والحزن فلا حياة مقامة على حزن محض ولا حياة مقامة على فرح محض وكأن الإحساس بأحدهما شرط في الإحساس بالآخر، أو أن وجود أحدهما مرهون بوجود نقيضه.

والجواهري من الشعراء الذين أحسوا إحساساً غائراً بالحزن في واقعه المعيش فيه فنعكس ذلك على صفحة شعره وصيّرَه لنفسه امتيازاً طرب له وافتخر به وللحزن عند الجواهري مسوغات وأسباب يتضافر فيها الذاتي والموضوعي ولم يكن بمستطاع الشاعر أن يتحصن ضد هذه الأسباب دوغماً استجابة حزينة تعم أقطار نفسه، ونحن إذ ندرس هذا الحزن ندرسه لا لأنه حزن فالتناس جميعاً بهذا القدر أو ذاك حزنوا ويحزنون لكننا ندرسه لأنه حزن شاعر مرهف الإحساس متمكن من فنّه يعرض علينا خبايا نفسه بطريقة مخصصة فينتزع بها منا الإعجاب ويغرينا بالحزن حتى ليجعلنا نحزن له أو نحزن معه فيطيب لنا الحزن كما طاب له.

إن هذا الشعر المعقود على الحزن ولید تجارب قاسية للشاعر وثمره مرّةً لاحتكاكه المباشر بالحياة والناس والكون وهو من خلال هذا الشعر يرسم صورة دقيقة لمنحاه الجاد في الحياة فيما يأخذ وما يدع وفيما يقبل وفيما يرفض وفيما يحسن ويسوء، وما جرّته عليه هذه المواقف من آلام كبار وهموم لا تطاق أودعها في أوعية شعرية رقيقة تحمل في الوقت نفسه إجابات شافية عن ثلاثة أسئلة يقام عليها هذا البحث وهي:

لِمَ كان الجواهري يحزن ؟ وكيف كان يحزن ؟ وبِمَ كان يلوذ حين يحزن ؟

للحزن في شعر الجواهري مادة قيمة، وقد تجلّى ذلك من خلال النصوص المجموعة التي تشكل عماد البحث، وقد ارتأى الباحث بغية التنظيم والتسهيل تشطير البحث على المحاور الثلاثة الآتية:

1 - لِمَ يحزن الجواهري ؟

الإنسان كائن اجتماعي يفرح لما يوافق هواه من قول أو فعلٍ أو اعتقاد ويحزن حين تتعارض إرادته مع إرادة الآخر وتقتصر وسائله عن حسم التعارض لصالحه، وقد يتساءل متسائل: أيجزن الجواهري وهو الشاعر الكبير ذو الشهرة الطائرة والجمهور العريض والتحدي العنيد ؟ أقول: نعم الجواهري يحزن أيضاً مثله في ذلك مثل غيره من المملأ ينتابه ما ينتابهم من عواطف وانفعالات لكن الذي يميزه عن سواه من الناس الآخرين هو أنَّه شاعر مسكون بموهبة فذة خالقة تعينه على صياغة عاطفة الحزن صياغة تبهر النفوس وتنزع بها إلى أجواء الشاعر الحزين فتجعل الحزن قسمة مشتركة بين الشاعر والمتلقي عبر التعاطف الحميم معه، ولكن ما الذي يحزن الجواهري ؟ أقول: ليس هناك شيء أوقع للحزن على قلب الجواهري من أن يرى أبناء شعبه وقد حاق بهم الحيف وكبح إرادتهم الظلم وران على واقعهم الهوان؛ ولهذا تتجاوز همومه أنها لتكبر وتشمل وطناً على سعته قائلاً:

عَلَى وَطَنِ مُضَامٍ مُسْتَهَانٍ⁽¹⁾

بَكَيْتُ وما على نَفْسِي وَلَكِنْ

ويتوحد الشاعر بدجلة مصدر الخير والعطاء في العراق فيحزن أيما حزن لما آلت إليه من ألم وتعرضت له من بؤس وتمزق إذ يقول:

يُغلي فؤادي وما يُشجيكِ يشجيني

يا دجلة الخَيْرُ ما يغليكِ مِنْ حَنَنِ

في مائِكَ الطُّهرِ بَيْنَ الحينِ و الحينِ

ما إِنَّ تَزالَ سِياطُ البَغْيِ ناقعةً

على القرى آمَناتٍ و الدهاقينِ

ووالِغاتُ خيولِ البَغْيِ مصبحةً

بهِ مجاريكَ مِنْ فَوْقٍ وَمِنْ دُونِ

يا دجلةَ الخَيْرِ أدري بِالذي طَفَحَتْ

أنفاسكَ السُّمرِ عَنْ أناتٍ محزونٍ⁽²⁾

أدري على أَيِّ قَيْثارٍ قَدْ انفجرتِ

(1) - ديوانه: 399/1.

(2) - م.ن: 88.86/5.

فالشاعر يغور فيه الأسى حين يرى قوى الجور والبطش متمكنة منها شاذةً قبضتها عليها مدنسة ماءها الطهور باثة الذعر في أنحاء القرى الآمنات التي كانت تغفو على ذراعيها وتهنأ بسحر ضفافها، فلم تعد دجلة الراحة تحت العطش سوى مناحة تبث أنغامها الشجية التي هي صورة جليلة لأنات أهلها المحرومين من خيرها الفياض وعطائها الدافق.

لقد حرص الجواهري الحرص كله على العراق الموحد وظل طوال حياته يشدو لوحده وتماسكه كارهماً التجزئة والانقسام مجاهراً بحزنه كلما علا وطنه رذل أو قام عليه شرار الناس:

ولكنني آسٍ لنهبٍ مقسَّمٍ وليس بهٍ للصالحينَ نصابُ

ومعكوسةٌ حتى كأنَّ خياره بهِ خطأ ... والأردلونَ صوابُ

أطاحتُ بأعشاشِ النسرِ بغائته وحلَّ بهِ خير الوكور غراب⁽¹⁾

ينظر الجواهري فيما حوله فيبدو له كل شيءٍ من حوله في غير محله وعلى غير طبيعته، الصور معكوسة، والمقاييس مختلة، والموازين مقلوبة والأوضاع متردية تنحّي كل مرغوب فيه وتدني كل مرغوب عنه وهذا المنظور إليه يستاء منه الجواهري وبوحي من ذلك يحشد التضادات المختلفة (الخطأ والصواب، الخيار والأردلون، النسر والبغاث) ليسوغ لحزنه عبرها فالأخيار مغيبون وهم بالحضور أولى والأراذل محتفل بهم وهم بالإعراض أحق وأولو العزة والشموخ مشردون في المطارح وتلك قسمة غير عادلة وضعاف الناس وأدنانهم بأقدار الخلق عابثون عبثاً يثير مكامن الأحران وذلك واقع والعين تشهد.

ويلخص الشاعر المحزان صورة وطنه المعذب في هذا الثالث المدينس (الفقر) الذي يذيق أبناء وطنه الحرمان المقيم و(الإرهاق) الذي يعطل الطاقات الخلاقة (والبكم) الذي يسلب المرء قدرته حتى على النطق والسماع ومقدار هذه الأعباء المتآزرة مع بعضها يكون برم الشاعر بالحياة وسوء فعلها به قائلاً:

فليشهد الناسُ طُراً إنني خجل فليشهد الناسُ طُراً إنني برمُ

(1) - م.ن: 4/183.

وليسمع الناس شكوى من له اجتمعت

غضاضة العيش والإرهاق والبكم⁽¹⁾

ولم يعد أمام الشاعر سوى خيارين أحلاهما مرُّ إما الإقامة في الوطن المضام والإذعان للهيبة
السيطرة الكاوية أو التحول عنه على شدة ومضض إلى بلد آخر يسحقه فيه النأي عن الربع والأهل
إذ يقول:

أ فحنن المضغنون عن الرب

ع ونحن الحمأة فيه لظعن؟

أ فحنن الذين يرتفع السو

ط عليهم بظنة المتظني؟⁽²⁾

ووسط هذا الصراع اللدود يفتش الشاعر المهموم عن مخرج لأحزانه فيهرع إلى الماضي
مستجيراً به آملاً منه بعض الهناء بيد أن الماضي لا يعينه على بلواه بل يستثير أحزانه ويقطع رجاءه
حتى تصبح تلك الذكريات صورة حمراء:

يا ذكريات كلها حُرُقْ

تطأ الفؤاد وتلهب الحدقا

هي صورة حمراء من شجني

تدمي اليراع وتُرعبُ الورقا⁽³⁾

إن الشاعر يسحب إلى ذاكرته في يومه ذكريات أمسه متمنياً تكرار حدوثها بيد أن المهموم
الجسام التي غزت نفسه وأثقلت كاهله في حاضره أماتت المأمول في داخله فلاذ بالحرسة المرة التي
أطلقها غير مرة في بيتيه الآتين:

يا أم عوفٍ وقد طال الغناء بنا

آه على حِقْبَةٍ كانت تُعانينا

آه على أيمنٍ من ربع صبوتنا

كُنَّا نَجُولُ بهِ غرّاً مَيَامِينَا؟⁽⁴⁾

(1) - م.ن: 520/1.

(2) - م.ن: 233/5.

(3) - م.ن: 302/3.

(4) - م.ن: 202/4.

وإذْ تَقْذِفُ الغربة بالجواهري خارج الوطن يشتد ارتباطه بالذكريات ويُلج على ذكر تفصيلاتها لاسيما التي عاشها مع أقرب الناس إليه صلة وأشغفهم حباً وهم عياله، يقول:

خَلِيلِي أَشْجَى مَا يَنْغُصُ لَذِّي مَنَاحُ أَقَامَتِهِ عِيَالٌ وَ أَطْفَالٌ⁽¹⁾

وتظل الغربة تعنته وتحاصره فيجأ بالنداء لأحبابه على بعدٍ عساهم أن يلتفتوا إليه ويدركوا وقع ضواغط النفس عليه عبر استخدامه المكرر للفظـة (مَرَّ) المستمدة من معجم الذوق ليظهر بها بُتُّه وسوء فعل الغربة به قائلاً:

أَحْبَابُنَا بَيْنَ مُحَانِي الْعِرَاق كَلَفْتُمْ قَلْبِي مَالاً لَا يُطَاق

الْعَيْشُ مَرُّ طَعْمِهِ بَعْدَكُمْ وَكَيْفَ لَا وَالبعد مَرُّ المَذَاقِ⁽²⁾

وبفعل هذه الغربة القاتلة يستحيل الجواهري إلى نمط آخر من البشر إذ يشرب غير ما ألف الناس شربه (الدمع) ويأكل غير ما اعتاد الناس على أكله (قلبه) ويمعن إمعاناً في الحالين بدلالة صيغتي (شروب، أَكَّال) حتى ليعود القلب الذي كان متماسكاً قويا في القرب تفاريق بـدداً في البعد قائلاً:

فإني من دمع عليكم أذيله شروبٌ ومن سوداء قلبي أَكَّال

لقد كان هذا القلب في القرب مضغَّةً وها هو من بعد الأُحبة أوصال⁽³⁾

والجواهري لا ينكر أنه عاش في مواطن الغربة محفوظ الكرامة موفور العزة بيد أن العزة التي كان يرفل في أثوابها ويحيا في أكنافها لم تكن بقادرة على دفع طائلة الحزن المستبد به، فالوطن بمعناه الاعتباري شيء وخارجه بمعناه المادي شيء آخر مختلف عنه وذلك الخارج رغم صلاحه لم يَقوَ على تضميد كبرياء شاعر قد جرح وجبر خاطر رهيف قد كسر ولم يحمل حلاً لشريد لا تنتهي أزمته حتى يزول ذلك التضاد القاهر له في وطن يسلب

(1) - م.ن: 265/1.

(2) - م.ن: 255/1.

(3) - م.ن: 266/1.

الغراب فيه رفعة الصقر ويسمو عليه ويغدو فيه الفطن النابه مقهوراً من بليد خامل الذكر:

أنا في عزّة هنا غير أنيوعلى
لي عتابٌ على بلادي شديدٌ
أفصقر طريدهً لغرابٍ

في فؤادي ينزّ جرحُ الشريد
الأقربين جدٌ شديد
ونبيحٌ ضحيةً لبليد⁽¹⁾

فالوطن المعنى لا عوض عنه في المغترب حتى لو كانت الرغبات كلها طوع يد الغريب وحاجاته إليه منقادة (فهو مغرم بالحزن والآهات والأسى حتى وإن وافته الآمال الغر الحسان ورعته العناية بألطافها)⁽²⁾

ومن هنا لا يحس الشاعر بطعم البهجة ولا بلذة الفرح في أهنأ لحظات الغربة وتظل نفسه تهفو إلى الوطن (على كدره) ويؤثره على غربته الطرية الزاهية فالوطن على مساوئه - عند الشاعر - وطن والغربة على محاسنها غربة وشتان ما بين الغربة والوطن والضياع والهوية:

في دارة الشمسِ أو في هالة القمر

أتى ثوى ذو طماحٍ فهو مغتربٌ

لكن لحاجتها القصوى إلى الكدر⁽³⁾

سبعٌ توهمتها سبعين لا كدراً

فما بالك بالشاعر يتوهم الأعوام السبعة التي قضاها في منأى عن الوطن وكأنها سبعون عاماً لبطنها وطولها عليه ورغبته الجارفة في مشاركة أبناء الوطن آلامهم وإن ذلك كان منه لا لأنه كان يشكو الكدر وسوء الأوضاع ولكن حباً بالكدر لأنه يريده قاسماً مشتركاً بينه وبين أحبائه أبناء الوطن.

(1) - م.ن:76/5.

(2) - الشعر والزمن:79.

(3) - ديوانه:315/5.

إنَّ الشاعر يعي وهو في حومة الحزن أنَّ المرء إذا طمح إلى الآمال الكبار لامناص له من الاشتباك بالحياة ومواجهة الأقدار وحين تخذله المواجهة ويتعذر عليه نيل مناه يفرز إلى نفسه لائذاً بالحسرة المشوبة بشفيف الندم قائلاً:

جلبت لي الهمَّ والهمُّ عنا
آهٍ ما أروحني لولا المنى

آهٍ ما أخيبني من غارسٍ
(1) شجر الآمالٍ لكن ما جنى

والشاعر المحزون يحاول أن يكسر طوق الحزن المضروب عليه فيستعرض مزايا نفسه مستقوياً بـ (الأنأ)، أنا الجواهري الشاعر الذي رفع لواء الشعر، أنا الجواهري الذي يشد إليه الناس الرجال ويحتفون به في كل محفل، أنا الكبير المتربع على عرش الشعر، أنا الذي قارع الحكام الجائرين وأقلق بالهم فهابوا جانبه وخافوا صولته، فالشاعر هنا يصدّم الراهن القاحل بالماضي الفاضل ليوهن من سطوة الحزن عليه ويطلع هؤلاء الآخرين على سوء منصرفهم المتمثل بتقلب أهوائهم وتذبذب مواقفهم قائلاً:

وكان لم يرفع منار القصيد
وكان لم يكن محج الوفود

ملأ الأرض حين عادى ذوي الحك
م وذابوا من حوله حين عودي (2)

وتطفح نفس الجواهري بالحزن لغياب المقاييس السليمة في بيان أقدار الناس إذ تعم فوضى عارمة وتسرح الفرصة للمتربصين بالأوضاع باعتلاء منازل ليسوا لها بأهل ومقامات ما أسندت إليهم عن علو كعب وزيادة فضل فما أتعس دنيا يتقدم فيها مَنْ حقه التأخير ويتأخر فيها من حقه التقديم وطبيعي أن لا تروق هذه السفاهة للجواهري بيد أنه الأمر الواقع الذي يدعو إلى الحزن ويحمل عليه:

أمر من المِلح الأجاج —واردي
وأوجعُ من شوكِ القتادة زادي

تقدّمني مَنْ لستُ أرضى اصطحابه
(3) وطاولني مَنْ لَمْ يَكُنْ بعدادي

(1) - م.ن:1/131.

(2) - م.ن:5/77.

(3) - م.ن:1/440.

ويحزن الجواهري لتقاعس رفاقه عن نصرته وإحجامهم عن الاصطفاف معه بإزاء أعدائه المتكالبين عليه والقادحين فيه وليس هناك ما هو أسوأ من أن ينتصب المرء بمفرده تجاه هجمة الأعداء ورفاقه لاهوون عنه ومنفضون من حوله، وقد شكا الجواهري مراراً من تخاذل هؤلاء الرفاق عنه أو أن محنته وهو القائل فيهم:

أ غمزاً في قَناتي مِنْ عُدَاةٍ تناهَشني وصُمْتاً مِنْ رفاقي

ولَهُوا في التندر من جراحي تلهيَ الطفلَ بالكسر الدَّقاق (1)

لقد كانت كل هذه البواعث المذكورة من وطن مضام وذكريات حبيبة إلى النفس وبعدٍ عن الأهل والصحب والخلان والعيال واختلال قواعد السلوك في المجتمع والسعي المريب للحاسدين والعُداة وقلة الوفاء والطموح المتعثر كانت مجتمعة أسباباً مثيرة لأحزان الجواهري ومحركة لأشجانه التي أودعها شعره وأفصح عنها بالكلم الحسن والأداء الأسر.

2 - كيف يحزن الجواهري ؟

للحزن كما للانفعالات النفسية الأخرى كالغضب والخوف والفرح أمارات تدل عليه ومظاهر تنبئ عنه وتغدو هذه الأمارات لغة إشارية تفصح عن الحزن الثاوي في النفس وإن كانت عاجزة عن تبيان أسبابه أحياناً، والجواهري حين يحزن يطوع لخته تطويعا فاعلاً ليتوفر بها على الطرائق التي ترفع الحجب عن عواطفه الكامنة التي تنطلق من ضميره كما يقول:

أبدأ أنوح من الضمير — ر وبالضمير أغرّد (2)

ويطلعنا الجواهري على أحزانه من خلال شكواه المرة وهو يأمل أن تكون هذه الشكوى متنفساً عن أثقال نفسه المحزونة بيد أن هذا الأمل يتراجع إذ يرى أحزانه أكبر

(1) - م.ن: 273/5.

(2) - م.ن: 93/6.

بكثير من أن تستوعبها شكوى ماثوثة باللسان بل ان اللسان نفسه ليتعطل عن أداء وظيفته في النطق لشدة تأثير الحزن فيه فيقول:

وَتُنْطِقُهُ الشَّكْوَى فَيُخْرِسُهُ الْأَسَى
فَيَسْكُتُ لَاحِيَهُ إِذَا جَدَّ عَازِرُهُ ⁽¹⁾

وما الشكوى هنا إلا (عاطفة إحساسها الشعور بالحرمان ولكنها من أول الفنون التي تفصح عن عاطفة الإنسان المتشائمة الناقمة وتنعكس أوجاع النفس في أشجانها وقنوطها وآلامها نتيجة التناقض والإحباط أو الضعف الذي يواجهه الإنسان إزاء قوة لا يقدر عليها) ⁽²⁾، فالجواهري يحس أن في الشكوى دلالة ضعف فيلملم مواجهه ويستجمع قواه ليواجه القوى القاهرة له أو في الأقل ليبدو كالقوي ووسيلته في ذلك الصبر على البلية وحبس النفس عن الشكوى قائلاً:

وَشُكْوَاكَ فَأَكْتَمَهَا وَقَلَّ مُتَجَلِّدًا
زَمَانٌ مَضَتْ أَوْلَاهُ هَذَا أَوَاخِرُهُ ⁽³⁾

لكن كتمان الشكوى لم يمنح الجواهري الصورة الفاعلة التي يحو بها شماتة الشامتين به إذ إن البكاء يعلن المخفي ويكشف عن المستور ويفسد عليه خطته في التجلد فتراه يقول:

تَفْرِدُ بِالشَّكْوَى فَأَسْعِدُهُ الْبُكَاءُ
لَقَدْ ذَلَّ مِنْ قَيْضِ الْمَدَامِعِ نَاصِرُهُ ⁽⁴⁾

هنا يجد الشاعر في البكاء بعضَ الهناء على الرغم من سعيهِ الحثيثِ إلى كتمان أحزانه فيلوذ بهذا البكاء ليسعد أمّا الكتمان فيأبى عليه كَفَّ دمعهِ أو جرى قائلاً:

وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَفْجُوعَ حَبْسُ دَمْعِهِ
وَبَاطِنُ مَا يَخْفِيهِ يُبْدِيهِ ظَاهِرُهُ ⁽⁵⁾

(1) - م.ن: 1/109.

(2) - الشكوى: 4.

(3) - ديوانه: 1/90.

(4) - م.ن: 1/109.

(5) - م.ن: 1/90.

قَدَمْعُ الْعَيْنِ هُوَ بَدِيلُهُ الْأَثِيرُ الْمَعْبَرُ عَنْ أَحْزَانِهِ حِينَ يَعْتَرِي لِسَانَهُ الْوَهْنُ وَتَخْذَلُهُ آلَةُ النَّطْقِ
عَنِ الْبَثِّ وَالشَّكْوَى قَائِلًا:

يَا سَادَتِي أَمَّا اللَّسَانُ فَوَاهِنٌ مَتَلَجِلِجٌ فَلْتُلْهِبْكُمْ أَدْمَعُ⁽¹⁾

فَالْهَمُّ ظَاهِرٌ وَالضَّيَاعُ وَاقِعٌ وَالْأُمُّ كَبِيرٌ وَكَفَّةُ الزَّمَانِ هِيَ الرَّاجِحَةُ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ حَوْلٌ أَوْ
قَبْلٌ عَلَى مَطَاوِلَتِهِ وَرَدُّ قِسَاوَتِهِ عَنْهُ فَطَرَفَا الصَّرَاعَ لَيْسَا مُتَكَافِئَيْنِ وَلَيْسَ أَمَامَ الشَّاعِرِ بِإِزَاءِ سُلْطَانِ
الزَّمَانِ الْعَاقِي سَوَى خُطَابٍ مَنْسُوجٍ بِنَبْرَةٍ بِأَدِيَةِ اللَّيْلِ سَافِرَةِ الرَّجَاءِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى رِعَايَةِ الْمُنْكَوْبِ بَعْدَ
تَتَابُعِ أَحْزَانٍ وَطُولِ عَهْدٍ بِالنَّكَايَةِ فَهُوَ يَقُولُ:

لَعَلَّ زَمَانًا ضَيَّعْتَنِي صَرْوَفُهُ يَرِقُ فَارِئِي فِيهِ قَدْرٌ مُضَيِّعٌ⁽²⁾

وَفِي اللَّيْلِ إِذْ تَسْكُنُ النُّفُوسُ وَتَهْدَأُ يَثُورُ بَرْكَانُ الْحُزَنِ فِي دَاخِلِ الشَّاعِرِ فَيَأْبَى عَلَيْهِ النَّوْمَ وَهَنَا
يَتَرَاكِبُ الْهَمَّ وَيَتَضَاعَفُ إِحْسَاسُ الْمَفْجُوعِ بِالْوَحْشَةِ وَانْقِطَاعُ الصَّلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعِينِ عَلَى الْبَلْوَى أَوْ
فِي الْأَقْلَى يَحْسُ بِالِاخْتِلَافِ الْبَائِنِ بَيْنَ حَالِهِ وَحَالِ الْآخَرِينَ الْمُتَمَثِّلِ بِقَلْقَلَةِ الَّذِي تَجَاوَرَهُ رَاحَةُ بَالِ
الْآخَرِينَ وَأَيُّ قَلْقٍ أَشَدُّ مِنْ قَلْقِ الضَّجِيعِ عَلَى النَّارِ كَمَا يَقُولُ:

وَبِتُّ بَلِيلٌ لِفَرْطِ الْأَسَى كَلِيلِ الضَّجِيعِ عَلَى نَارِهِ

وِظَلٌّ يَحْنُ فَوْادِ الْمَشُوقِ لِذِكْرِ الْحَبِيبِ وَأَخْبَارِهِ⁽³⁾

وَيَعْقِدُ الشَّاعِرُ الْآصِرَةَ بَيْنَ أَرْقِهِ وَلِيلِهِ الْمَعِيشِ فِيهِ بِالتَّأَكِيدِ عَلَى اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ وَمَدْلُولِهِ الْكَأَبِي
(دَاجٍ، مَسْوَدٍ) بِهَدَفِ الْإِمْعَانِ فِي الْعَتَمَةِ لَكِنَّهُ لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ اللَّوْنِ وَحْدَهُ إِنَّمَا يَقْرُنُ قِتَامَةَ اللَّيْلِ
بِحَرَكَةِ الزَّمَنِ الْمَحْكُومِ بِثِقَلِ الْخَطْوِ وَبَطْءِ الْجُرْيَانِ وَهَذَا الْبَطْءُ بَلَا شَكٍّ يُفْضِي إِلَى إِطَالَةِ أَمَدِ الْأَرْقِ
وَالشَّاعِرُ هُنَا يَخْضَعُ الزَّمْنَ (اللَّيْلَ) لِحَرَكَةِ نَفْسِهِ فَيَجْرِيهِ كَمَا تَشَاءُ نَفْسُهُ (الْحَرَكَةُ الْمَقِيدَةُ) لَا كَمَا
يَشَاءُ الزَّمَنُ فِي التَّوَاصُلِ غَيْرِ الْمُنْكَفَى (الْحَرَكَةُ الطَّبِيعِيَّةُ

(1) - م.ن: 497/1.

(2) - م.ن: 112/1.

(3) - م.ن: 178/1.

السلسلة) فهناك زمن بطيء وأرق متتابع قبالة عجز ظاهر فضلاً عما يوحي به الفعل (نرسف) من سلطان الهمّ عليه وتعذر وسائله في الخلاص من ربقته:

شتيم الوجهِ مسوّد الرواقِ

وليلٍ موحشِ الجنباتِ داجٍ

وإياهنَّ نرسف في وثاقٍ⁽¹⁾

أشدُّ إلى النجوم به كأيّ

وإذا كان ببطء الزمن يوحي بأجواء النفس الحزينة المثقلة بأوزار الهموم فإنَّ هناك أمارات أخرى للحزن تبدو شاخصه للعيان تنبئ عن الحزن الكامن من خلال حشا دامٍ ووجه أسفع⁽²⁾ وأعصابٌ تتمزق⁽³⁾ وجفنٌ قريح وقلبٌ شقهُ الورم⁽⁴⁾ وأصغرينٍ قد شلاً⁽⁵⁾ وفؤادٌ ملؤه ضرم⁽⁶⁾.

ويريد الجواهري أن يخرج بحزنه من طوره المألوف إلى أطوار أخرى أكثر سعةً وشمولاً فيحاول أن يشارك معه بعضاً مما يحيط به من مظاهر الطبيعة كالشجر الذي لايني عن التعاطف معه فإذا ما علم باحزانه تعطلت فيه وظيفة الإبراق لكنه يجهل حزن الشاعر وهنا يتوافر الشاعر على تحقيق أمرين بقوله: (لو يعلم) أولهما التعبير عن عظم أحزانه وشمولها والآخر مطابقة كلامه لمقتضى الواقع فالشجر في واقع الحال دائب على الإبراق سرّ الجواهري أو حزن لكن يعزو إبراق الشجر إلى جهله بحزن الشاعر ولو جعله غير موزق بعد تمام العلم لبان ادعاؤه المحض ولفقد مجازة طعمه وطاش سهمه عن حسن التعبير وجمال التصوير:

ما حلّ فيك من الأذى ما أورقا⁽⁷⁾

لو يعلم الشجر الذي أنبتّه

(1) - م.ن: 271/5.

(2) - م.ن: 498/1.

(3) - م.ن: 53/1.

(4) - م.ن: 519/1.

(5) - م.ن: 173/2.

(6) - م.ن: 520/1.

(7) - م.ن: 248/1.

إنَّ حزن الجواهري دائم لا يزول ولا يتوقف وإنَّ سعيه للفكاك من إساره سعيٌّ للوقوع فيه وإنَّ الهرب منه لا يعدو كونه هرباً إليه وقد حملته هذا الحزن الذي لا يكل على الزعم بأنَّ الإنسان ما وجد إلا ليشقى ويحزن وذلك هو قدره الذي يعيا به ويدعن له:

إذا تخلصت من همٍّ أطحت به شَبَّتْ همومٌ على أنقاضِه جُدُ

كأنَّ نفسك بُقيا أنفسي شقيت وكلُّ ذنبٍ ذويها إنَّهم وجدوا⁽¹⁾

وتحت وطأة الحزن الطاغي يلغي الشاعر التضاد بين الفرح والحزن حتى يستحيل التضاد إلى تآلف حزين (النعماء والبؤس) و(الصفو والكدر) فيصبح النعيم متجانساً مع البؤس والصفو متعاشقاً مع الكدر ولهذا يراوده الحزن حتى في أهنأ ساعاته قائلاً:

يا سامر الحيَّ إنَّ الدهرَ ذو عجبٍ أعيثْ مذاهبه الجلى على الفكر

كأنَّ نعماءه حُبلى بأبؤسه من ساعة الصفو تأتي ساعة الكدر⁽²⁾

وحينَ لا يقوى الشاعر على مقاومة الحزن في نفسه يُوسع نفسه لوما وتقريعاً لأنه اصطنع منهج الجد في الحياة وهذا المنهج شاق عسير محفوف بالمخاطر الجسام التي تقلق البال وتكدر الحال ولو أقي الحياة من منحها الهازل لكانت العاقبة على شاكلة أخرى لا أثر فيها لحزن ولا مطرح بها لهم:

ماذا صَنَعْتُ بنفسي قد أحقتُ بها ما لم يُحِقْهُ بـ (روما) عسف نيرون

ألزمتها الجدَّ حيثُ الناسُ هازلةٌ والهزلُ في موقفٍ بالجدِّ مقرون⁽³⁾

على الرغم من أن لوم النفس واضحٌ في البيتين بيدَ أنهما لا يخلوان من نبرة الفخر بالنفس ويتجلى ذلك في عزوفه عمّاً تهافت عليه الآخرون من هزلٍ قريب المنال ميسور

(1) - م.ن: 349/5.

(2) - م.ن: 314/5.

(3) - م.ن: 99/5.

الأسباب، من هنا يصير الشاعر الحزن ميرةً لا يحتمل أعباءها إلا المئابِر أما الهازل غير المبالي بالحياة فبينه وبين الحزن بون وأيّ بون.

3 - بِمَ يَلُوذُ الْجَوَاهِرِيُّ حِينَ يَحْزَنُ ؟

يعتمد المحزون عادةً إلى اللوذ بوسائل تعينه على الخلاص من أحزانه أو التهوين من سلطانها عليه، والوسائل إلى ذلك تتنوع وتتعدد وللناس مذاهب في اصطفاء هذه الوسيلة أو تلك أو الجمع بين هذه وتلك بفعل ضواغط النفس، وللجواهري في هذه الأحوال معينات يخف إليها كلما ضاق صدره بالهمّ ومنها الشعر، وصحيح أن الجواهري يذكر بأن شعره قد جرّ عليه الويلات وأذاقه صنوف الحرمان والعسف كما في قوله:

سَتَعْرِفُ مَا مَعْنَى الشَّعُورِ وَكَمْ جَنَتْ لَنَا مَوْجَعَاتِ الْقَلْبِ هَذَا الْمَقَاطِعِ⁽¹⁾

بيد أنه يُصرح مراراً بأن الشعر هو الموئل الأثير الذي ينصرف إليه ليستريح عنده وينفس من خلاله عن كربهِ وآثارها بل إنه ليجعل الشعر الجيد وليد الألم والحزن وينفي عن شعره الجودة بغياب الحزن المؤثر قائلاً :

ولكم طربتُ فما أجدتُ وحسبكم أَنِي أَجِيدُ الشَّعْرَ حِينَ أَنُوحُ

أَمَّا التَّبَارِيخُ الْجَرَارُ فَانْهَآ لِلنَّفْسِ مِمَّا تَشْتَكِي تَرْوِيخُ⁽²⁾

والشعر المقدود من الحزن متوافر على الصدق الذي يضمن له التدفق أوان القول والقبول الحسن والانتشار الواسع أوان التلقي، والشعر البريء من الحزن شعرٌ لا يُفْضي إلى شيء ولا يثمر عن شيء ومثله في ذلك مثل السراب الذي يخيب آمله ويخذل قاصده:

(1) - م.ن:1/101.

(2) - م.ن:1/432-431.

وخلواً من القلبِ الجريحِ سرابٌ

هو الشعرُ موجوعاً ينبعُ رحمةً

وغير الدم المنزوف منه شرابٌ⁽¹⁾

أ للناسِ زاد غير آهةٍ شاعِرٍ ؟

وإذا كانت الحياة مستحيلة على البشر من غير طعام وشراب وتلك مسألة لا جدال فيها فإنّ الجواهري يسحب قاعدة مشابهة لهذه القاعدة على شعره إذ يرى أن لا حياة لهذا الشعر ما لم يقيم على عيون تسبل الدموع وقلب يقتات على الحزن:

خلاءً من زحافٍ أو سنادٍ

أيدري مَنْ يُردّها حسناً

قوافيه وتأكل من فؤادي⁽²⁾

بأنّ الشعر تشرب من عيوني

إنّ القصيدة الدّموع التي يكتبها الجواهري لا ينتهي أثرها عند تفريغ الهموم في الحروف إنّما ينتظر منها استجابة حزينة مماثلة من متلقيها قصد الإشراك وحياسة التعاطف وإلاّ فماذا يُغني أو ماذا يعني هذا الدمع المشعور أو هذا الشعر الدميّع ؟ والجواهري يبحث عن هذا الأثر في هذا التساؤل المطروح في قوله:

والأناشيد بكاءً وحنينٌ

القوافي أدمع منظومة

كان من أوتارها القلبُ الحزينُ⁽³⁾

كيف لا تحزنكم أهزوجة

إنّ هذا الشعر مستودعٌ لعواطف الشاعر وترجمته خالصةٌ لوجدانه المكلولم فإن أراد امرؤ أن يرود شيئاً أو أشياء من أمر حزنه اهتدى بشعره إلى ضالته ومن هنا يكون الأمر سيان أن ترى الجواهري حزناً بأمّ عينيك أم تقرأ أشعاره وتوقعها على سمعك لأنك لا تقرأ أو تسمع ألفاظاً وتراكيب إذ تقف على شعره إنّما تحسّ بمشاعر تأخذك في الحزن أخذاً وعواطف تبسط ظلّالها عليك بسطاً ودونك في هذا قوله:

(1) - م.ن: 4/182.

(2) - م.ن: 1/402، وينظر 6/94.

(3) - م.ن: 1/271.

هذا القصيد (أبا علي) كلُّه

حزنٌ وكلُّ سطره أوصابٌ

ثِقْ أَنْ أَيْبَاقِي لِسَانٌ عَوَاطِفِي

ثِقْ أَنْ قَلْبِي بَيْنَهُنَّ مَذَابٌ⁽¹⁾

ويرى الجواهري أنَّ (الشعر لا يولده إلا الحزن والغضب والمصائب ولا يؤثر في متلقيه إذا كان مرفهاً وليد الحياة الطيبة)⁽²⁾ ولتأكيد هذه الفكرة يقول:

أَمَّا الْقَوَافِي فَأَنْغَامٌ تَوْقَعُهَا

يُدُ الْخُطُوبِ إِذَا مَا هَيْجَتِ عَصْبِي

أَصِخْ لِتَلْحِينِ رُوحِي وَهِيَ نَاقِمَةٌ

فَمَا يَهْزِكُ لَحْنُ الرُّوحِ إِنْ تَطَبَّ

شَجَّتْكَ كُرْبَةٌ أَبْيَاتٍ وَجَدَتْ بِهَا

عَلَى كَاتِبَتِهَا تَفْرِيجَةٌ الْكَرْبِ⁽³⁾

والجواهري المستجير من الحزن بالشعر ينقل عدوى أحزانه إلى الشعر نفسه فكلاهما معذبٌ مهموم وهمه وهم الشعر سواءً وما همَّ الشعرُ لدى التحقيق سوى همَّ الجواهري نفسه الذي يبكي الشعر إذ يرى ساحته كضيضةً بأدعياء الشعر ومستباحةً من الطارئین عليه:

أَنَا يَا شِعْرَ وَإِيَاكَ

سَوَاءٌ فِي الْعَذَابِ

أَنَا مِمَّا بَكَ أَبْكِيكَ

وَتَبْكُنِي لِمَا بِي⁽⁴⁾

ويختصر الشاعر الحزن كله حزن القوافي وحزن البلاد بأسرها في صورة نفسه ويعكس من خلال هذه الصورة الشقاء الجاثم على البلاد قائلاً :

وَلَا تَعْجَبُوا أَنَّ الْقَوَافِي حَزِينَةٌ

فَكُلُّ بِلَادِي فِي ثِيَابِ حِدَادٍ

وَمَا الشَّعْرُ إِلَّا صَفْحَةٌ مِنْ شَقَائِهَا

وَمَا أَنَا إِلَّا صُورَةٌ لِبِلَادِي⁽¹⁾

(1) - م.ن:1/505.

(2) - مجمع الأضداد، دراسة في سيرة الجواهري وشعره:88.

(3) - ديوانه:2/203.

(4) - م.ن:1/318.

والصبر على المكروه مؤثّل آخر من الموائل التي يلجأ إليها الجواهري كلما طأف بنفسه طائف الحزن، يصبر حتى تجلي الغبرة وتعود الأشياء إلى سياقها المعهود وهو يؤمن أيضاً بأن الحياة إذا تعثرت في جانب فلا يعني ذلك أن الشوط قد انتهى وإن الغاية قد اندثرت، وأسوته في هذا الصبر الطموح النسر الشامخ الذي قد يسفل والشجرة العظيمة المتسعة التي قد تعطف أغصانها الريح واللبن الخالص الذي قد يشوبه بعض الماء قائلًا:

حنانيك نفسي لا يضقُ منك جانب إذا ضاق من رحب النفوس جنابُ

ولا يتهضمك انخفاضُ فطامها تخفضُ نسر صاعداً وعقاب

وشامخة الأدواح يلوي عنانها مع الريح والمحضُ المريح يراب⁽²⁾

فالحر الكريم الذي يأبى الانصياع للمذلة والهوان ليس بميسوره إدامة التحدي لعوامل القهر وإحراز المبتغى ما لم يحتمل الألم ويعبئ نفسه بالصبر المكين الذي يشد العزم ويوطد الخطو ويفضي إلى المأمول، ومن هنا ينهى الجواهري نهياً عن فتور الهمة تجاه ألم الحوادث قائلًا:

فلا تبتئس إن آلتك حوادثُ فإنَّ قصارى الحر أن يتألماً⁽³⁾

بيد أن الشاعر لا ينكر أنه يستسلم للحزن أحياناً إذ لم يعد الصبر ممكناً عليه لطول عهده به وكثرة دأبه عليه وشدة بلواه منه قائلًا:

لم أقوَ صبراً على شجوٍ يرمّضني حرانٌ في قفص الأضلاع مسجونٍ

تصعدت أه من تلقاء فطرتها وأردفت آهةً أخرى بآمين⁽⁴⁾

إن التظاهر بالصبر على الحزن لم يعد ممكناً وإنَّ التجلد لا يعدو كونه ذريعة واهية لحجب حقيقة النفس الآسية عن الآخر ويتجلى ذلك في قوله ساعة اخترام الموت زوجته:

(1) - م.ن: 439/1.

(2) - م.ن: 180/4.

(3) - م.ن: 116/1.

(4) - م.ن: 107/5.

في ذمة الله ما ألقى وما أجـد

أ هذه صخرة أم هــذه كبـد

قد يقتل الحزن مَنْ أحبابه بعدوا

عنه فكيف بمن أحبابه فقدوا

خلعتُ ثوب اصطبار كان يسترني

وبان كذب ادعائي أنني جلد

بكيْتُ حتى بكى مَنْ ليس يعرفني

ونحتُ حتى حكاني طائر غرد

كما تفجّر عيناً ثرةً حـجـرُ

قاس تفجّر دمعاً قلبي الصلـد⁽¹⁾

ويتوسل الجواهري بالحزن نفسه ليتحرر من ربة الحزن وتصبح مشكلة الحزن في هذه الحال حلاً ينصرف به النظر عن الحزن القديم باتجاه الحزن البديل الذي يبقى عالماً يستشرف الحل فيقول:

وعالجتُ الأسى بأسى جديد

على أن الطيب هو العليل

وقد يُوقى بفرط الوجد وجدٌ

وقد يُشفى بحرقته الغليل⁽²⁾

إنّ الحزن الكبير- عند الجواهري - يلغي ما هو أدنى منه وأهون ولهذا يوازن بين آلام شعبه وآلام فاتر ولو تهيأ لجوته القدير - كما يرى - أن يعيش آلام شعب الجواهري لكانت عليه آلام فاتر وصغرت في عينه لهول ما يرى ولا نصرف عنها ليقدم للعالم قصة أبعد أثراً منها عن حزن أشد إيلاماً وأعمق غوراً وأدعى للفن الجميل:

لو لـ (جوت) تبدو تعاسة هذا الـ

شعب يوماً لكان أجمل فنا

لتناسى (آلام فترتر) طرّاً

ربّ حزنٍ ينسى أبا البؤس حزناً⁽¹⁾

(1) - م.ن: 351/2.

(2) - م.ن: 116/7.

ومن منطلق الانغماس في الحزن يعقد الجواهري نفسه على الحزن ويلج في طلبه وكأن نفسه تأبى الفرح وتضيق به كما يضيق الناس بالحزن ويذهب بعيداً بعيداً عن مألوف الناس حتى لينكر على نفسه أن تعيش ساعة من بهجة وعلى صدره أن ينشرح لبارقة سرور:

فمن يتنكر من همومٍ فإنني لأنكر أن أعتاد غير التحرق

وأنكر نفسي أن تُرى في انبساطٍ وأنكر صدري أن يُرى غير ضيق⁽²⁾

وبوحي من هذا الاندماج بالحزن يبرد الشاعر المحزون ضرام حزنه بالحزن قائلاً:

ودبَّ في القلب من تاملوره صَرَمٌ ما انفك يُثلجُ صدري حين يصلني⁽³⁾

والشاعر متألف غاية التألف مع الحزن وآية ذلك هذا الاحتفاء الحميم بالأرق المكدر للنفس والمعكر لصفو الليل فضلاً عن غرامه المفرط بالطائرات إذ يقول:

مرحباً أيها الأرقُ أنا بالطائرات أنتعشُ

لي فؤادٌ بالأمن يحترقُ وجفون بالنوم تنخدش

أكره البدر دهره نسقُ

وأحبُ النجومَ ترتعشُ⁽⁴⁾

إن الشاعر ههنا يسير في اتجاه مغاير لما اعتاد عليه الناس فهم ينشدون الخلاص من الأرق ويضيقون به وهو يرحب به ويأنس، وهم يفزعون من الطائرات وهو بها ينتعش ويكلف، وأفئدتهم تحترق من الخوف وقلبه بالأمن يحترق وعيونهم تقرح بالسهاد وعيناه

(1) - م.ن:1/451.

(2) - م.ن:1/514.

(3) - م.ن:5/107.

(4) - م.ن:5/118.

تفرحان بالنوم، أن هذا الترحاب الحار بالأزمات والأحزان يتكرر على لسانه ويعتد به إذ يقول:

قالوا أنت أزممة جلى فقلت لهم أهلاً وسهلاً فنعم الطارق الأزم⁽¹⁾

فالجواهري (هو المرء الذي يعيش في الأرق أكثر مما يعيش في الصحو ويجد نفسه في البؤس أكثر مما يجدها في النعيم فان وجدها في صحو أو نعيم فقل إن هذين من ذينك⁽²⁾).

وقد يعتمد الجواهري - إذا داخله الهم - إلى الخمر يستنصرها عليه ويستشعر الراحة في شربها، فهي تزيح عنه - ولحين - أطرافاً من مشاعره غير السارة ولهذا تراه يقول:

أ ليت أبرد حراً جمري وأدبل من أمر بخرم

وأقايض البلوى بأية بسمه عن أي ثغر⁽³⁾

فهو يطفئ حر الحزن وأواره باللجوء إلى الخمر (ففي اللجوء إلى الخمر نشدان للفرار ويكون ذلك بصد وسائل الحس عن التواصل مع الواقع، إنه يفصل الوعي عن التواصل معه ويخرج العقل عن عالم المواجهة المطلوبة فهو بذلك يرخي العنان للوعي ويرفع عن اللاوعي مضايقات الوعي⁽⁴⁾).

إن الجواهري لا يرى نفسه بدعة في اللجوء إلى الخمر للتهدوين من ضواغط الحزن عليه وإحلال المسرة في النفس بيد أنه يميل إلى تسجيل حالة من التمايز على هؤلاء الشعراء حتى في أحزانه فأحزانه لا تقاس بأحزان الشعراء لأنها أكبر من أحزانهم وابتعد أثراً وبالتالي فان الخمر لا تستجيب لحاجة نفسه ومن هنا يهجر الخمر والندامى لطول ملازمته لهما وشدة سأمه منهما وعدم غنائهما في بلوغ المرتجى قائلاً:

رأيتُ معاشرَ الشعراء قبلي تعدُّ الخمر مجلبةً ارتياح

(1) - م.ن: 254/5.

(2) - وراء الأفق الأدبي: 190.

(3) - ديوانه: 43/7.

(4) - نقد الشعر في المنظور النفسي: 100-99.

وقد أُغرقت في الأحزان حتى

سئمتُ منادمي وذممت راحي⁽¹⁾

إنَّ تجربة الآخرين مع الخمر والظن بقدرتها على جلب الارتياح المطلوب لهم تجربة غير
قادرة على إثبات صحتها حينما يكون حزن الجواهري محكها وهنا يخلع الجواهري على حزنه طابع
التفرد والشمول إذ يقول:

يا سامر الحي بي داء من الضجر

عاصاه حتى رنَّ الكأس والوتر

يا سامر الحي حتى الهمُّ من دأب

عليه آب إلى ضرب من الخدر

خلاف ما ابتدعت للخمر من صور

وجدتُها زادَ عجلانٍ ومنتظر⁽²⁾

وقد يهرب الشاعر من واقعه المر الحزين إلى عالم الخيال بغية تسلية النفس، فعالم الخيال
عالم جميل فتان يصنعه المرء لنفسه بنفسه وقد جرَّب الجواهري حظه مع هذا الخيال قائلاً:

خيالٌ رحْتُ من يأسٍ وحرصٍ

أسلي النفس فيه عن العيان⁽³⁾

لكن هذا الخيال الذي فُتن به الجواهري لم يجده نفعاً ولم يقوَ على احتواء مواجهه فألقى
سلاحه بين يدي الزمان قائلاً:

إليك زماني خذ حياة سئمتها

هي السم في ذوب الحشاشة ينقع⁽⁴⁾

(1) - ديوانه: 443/1.

(2) - م.ن: 314/5.

(3) - م.ن: 174/3.

(4) - م.ن: 112/1.

لقد ضاق الشاعر ذرعاً بدنياه وصروفها القاهرة فتمنى الموت هملء فيه قائلاً:

لو تسلمان وأن الموت يطويني

لقد وددتُ وأسرابُ المني خُدعُ

ياذل من يشتري موتاً بسبعين⁽¹⁾

قد متَّ سبعين موتاً بعد يومكما

هرب الجواهري من الدنيا إلى الموت فكان الموت ملاذه الأخير الذي وضع نهاية لأحزانه لكن نهاية أحزانه كانت نهاية لحياته نفسها في الوقت نفسه، وتلك أقصى صورة من صور الضعف الإنساني صوّرها الجواهري وصار إليها.

لقد حزن الجواهري (وكان الحزن رفيقه ونديمه وسميره لا يملك له راداً ولا يستطيع عنه فكاكاً ولا يجد عنه عزاءً وكان كلما حاول الخلاص منه عاد إليه فوقع فيه)⁽²⁾.

وخلاصة القول إنَّ البواعث التي أرقت الشاعر وأحزنته كثيرة متنوعة قوامها وطن مضام وشعب مغبون وأوضاع متردية وفقير مستفحل وطموح متعثّر وغربة القاهرة حالت دون الغريب وأشياؤه الحبيبة من ذكريات مبهجة وأصدقاء خلص وأقارب ودودين ومغانٍ كانت مجتمع الشمل فضلاً عن النوائب التي توالى عليه من فقد أعزة عليه كالأم والأخ والزوجة. وإنَّ الشاعر ينغمس في الحزن إلى الحد الذي يلغي فيه كل أمانة للفرح من حياته وتستحيل عنده لحظات الفرح إلى آثات من الكدر الساحق لا يذوق فيها إلا طعم الحزن وهو لا يني يرحب بالحزن ويحتفي به ويضيق بالنعيم.

ومن مظاهر حزنه الشكوى من الحياة والبرم بها والبكاء المرّ بالدمع الهتون، والإحساس بطول الليل وثقله والإيغال في الحزن إلى المستوى الذي يفضي إلى الخرس وعجز اللسان عن النطق والتعبير فضلاً عن السهاد المؤرق ثم التوسل بالزمن والإذعان له بعد طول تجريب لوسائل المقاومة وسبل الخلاص التي لم تغني عن شيء. ويقرن الشاعر الشعر بالحزن ويعد الحزن مرتكزاً أساساً للشعر وشرطاً جوهرياً للإجادة فيه وينفي عن شعره الجودة إذا حاد عن الحزن أو حاد الحزن عنه. وينظر إلى الحزن على أنه مشكلة وحل فالحزن الكبير يفتُّ في عضد الأحزان الأقل وقعاً وتأثيراً في النفس ويكون الموئل من الحزن - في هذه الحالة -

(1) - م.ن: 107/5.

(2) - جواهري العراق وعراق الجواهري: 151.

إلى الحزن نفسه، فقد ينسي الحزن حزناً وقد يوهنه وقد يلغيه. ويضفي الشاعر على حزنه طابع التفرد والخصوص، فحزنه لا تجاريه أحزان الآخرين وهنا يحس المرء لدى تلقي شعره أنه يفخر ويزهو من خلال حزنه، فحزنه نتيجة من نتائج دأبه على الجد وعاقبة من عواقب إصراره على التحدي. وينصرف تحت تأثير الحزن إلى الخمر لكنه سرعان ما يبدو له أن الخمر لا تقوى على ردّ أحزانه وتبديد همومه ومن هذا المنظور يسفّه التقاليد التي ركن إليها الشعراء قبله في اتخاذ الخمر عوناً لتفريج الهموم والتسرية عنها. وإنّ الخيال بتلاوينه الزاهية غير قادر على تخليصه من واقعه الحزين ولو حصل شيء من ذلك فإلى حين إذ ان الحزن في واقع الشاعر من القوة وشدة التأثير ما يجعل الخيال باهتاً مشلول الأداء غير ذي غناء.

ثبت المصادر

ثبت المصادر

- تطور الشعر العربي الحديث في العراق: الدكتور علي عباس علوان، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
- تهذيب اللغة: الأزهرى، تحقيق عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر.
- جملة استثنائية: صلاح فضل، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 279، سنة 1997.
- جمهرة اللغة: ابن دريد، مكتبة المتنبي، بغداد، طبعة بالأوفست.
- جواهري العراق وعراق الجواهري: أحمد جواد رضا، الطبعة الأولى، دار الكنوز الأدبية بيروت، 2003.
- الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، محمد إبراهيم حور، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1973.
- الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام: جليل حسن محمد، رسالة دكتوراه على الآلة الطابعة، جامعة الموصل، 1994.
- ديوان الجواهري: جمعه وحققه وأشرف على طبعه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور محمد مهدي المخزومي والدكتور علي جواد الطاهر ورشيد بكتاش، مطبعة الأديب البغدادية، 1980-1973.
- الذات والغرائز: فرويد، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، الطبعة الثانية، 1955.
- روح العصر، دراسة نقدية في الشعر والمسرح والقصة: الدكتور عز الدين إسماعيل، دار الرائد العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1972.
- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام: عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، 1986.
- الشعر بين الواقع والإبداع: صبيح ناجي القصاب، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1979.
- الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري: جواد رشيد محمد، رسالة ماجستير على الآلة الطابعة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 1988.

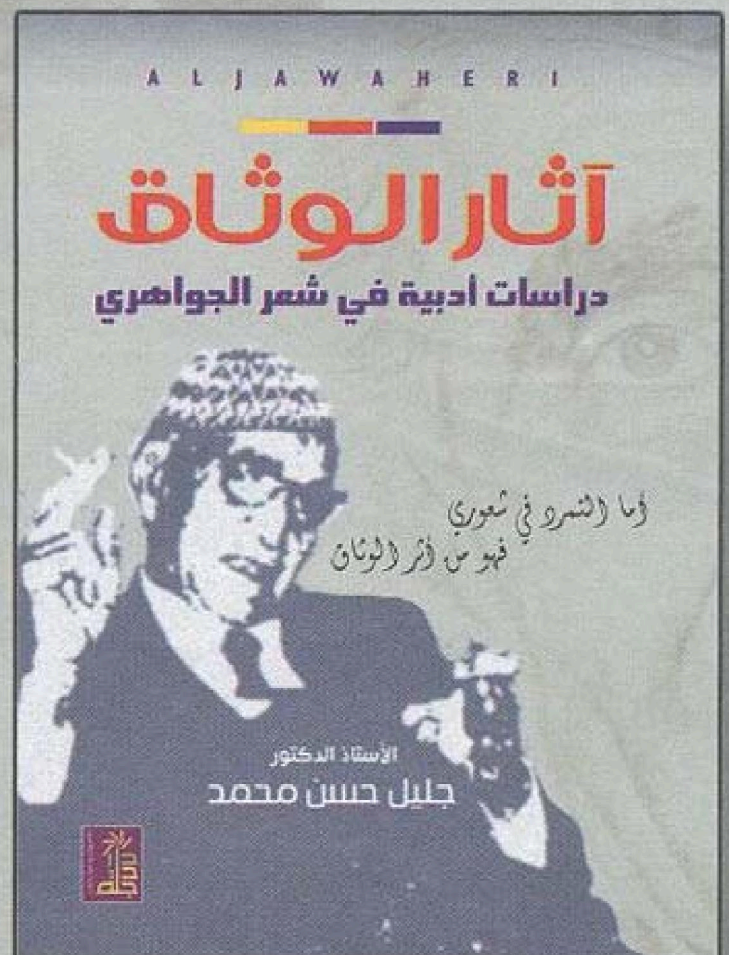
- علم النفس في الحياة العملية: بونهارت، ترجمة: د. إبراهيم عبد الله محي، الطبعة الثالثة، 1967.
- علم النفس والأدب: الدكتور سامي الدروبي، منشورات جماعة علم النفس التكاملي، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1981.
- لسان العرب: ابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة.
- لغة الشعر عند الجواهري: الدكتور إبراهيم السامرائي ضمن كتاب (محمد مهدي الجواهري دراسات نقدية) بإشراف هادي العلوي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1969.
- مجلة الشعر البيروتية، العدد 38، السنة العاشرة، 1968.
- مجلة المثقف العربي، حزيران، 1971.
- مجمع الأضداد، دراسة في سيرة الجواهري وشعره، سليمان جبران، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: الراغب الأصفهاني، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.
- المراثة الغزلية في الشعر العربي: الدكتور عناد غزوان إسماعيل، مطبعة الزهراء، بغداد، 1974.
- المطر والميلاد والموت في شعر السياب، عبد الرضا علي، مجلة الأقلام، العدد 3، السنة الثالثة عشرة، 1977.
- مقالات في الشعر الجاهلي: يوسف اليوسف، دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، بيروت، 1985.
- من الغربة حتى وعي الغربة: فوزي كريم، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1972.
- نقد الشعر في المنظور النفسي: د.ريكان إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989.
- وراء الأفق الأدبي (مقالات): د. علي جواد الطاهر، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة 1977.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	7
التحدي في شعرة	11
الغربة في شعره	33
الحزن في شعره	59
ثبت المصادر	83
الفهرس	85

آثار الوثاق

دراسات أدبية في شعر الجواهري



دار دجلة
ناشرون و موزعون



عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٤٦٤٧٥٥٠ ٦ ٠٠٩٦٢ خلوي: ٠٠٩٦٢ ٧٩ ٥٢٦٥٧٦٧

ص ب: ٧١٢٧٧٣ عمان ١١١٧١ - الأردن

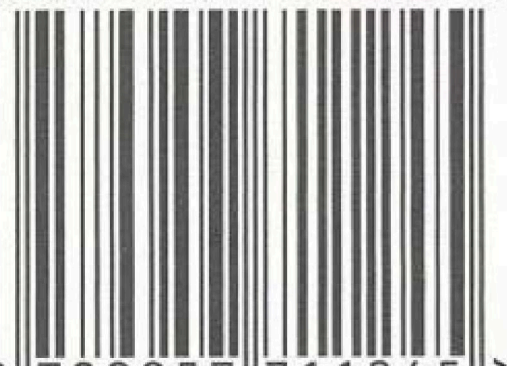
بغداد - شارع السعدون - عمارة فاطمة

تلفاكس: ٠٠٩٦٤ ١ ٨١٧٠٧٩٢ ٠٠٩٦٤ ٧٧٠٢١٥٢٧٥٥

خلوي: ٠٠٩٦٤ ٧٧٠٥٨٥٥٦٠٣ ٠٠٩٦٤ ٧٩٠٢٢٢٥٥٤٩

E-mail: dardjlah@yahoo.com

ISBN 9957-71-124-5



9 789957 711245 >